أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

أم كلثوم بنت أبي بكر
سكينة بنت الحسين
معاذة بنت عبد الله
نائلة بنت الفرافصة
عائشة بنت سعد
أم عاصم بنت عاصم
سلمى بنت حصفة

أم الدرداء الصغرى
فاطمة بنت عبد الملك
أم مسلم الخولانية
أم البنين بنت عبد العزيز
أم سنان بنت خيثمة
زينب بنت علي
حفصة بنت عبد الرحمن

الزرقاء بنت عدي

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

أم البنين بنت عبد العزيز

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

www.dawahmemo.com

(١١)

أمّ البنين بنت عبد العزيز

• أخت عمر بن عبد العزيز ، عابدة ، فقيهة ، تالية للقرآن الكريم ، سخية ، لها رأي نافذ وحكمة بالغة .

أُمُّ البَنِيْنَ بنْتُ عَبْدِ العَزِيْزِ

العَصْرُ الذَّهَبِيُّ :

* امرأةٌ كانت في الذَّروة والسَّنام من الإعزازِ والإكرام ، ترفعُ أعلام العزّةَ بين آلِها وذويها من الخلفاء والأمراء ، وحقَّ لها ذلك ، فهي أُمُّ البنين بنتُ عبد العزيز بن مروان الأمويّة القرشيّة ، أخت عمر بن عبد العزيز ، وزوج الخليفة الوليد بن عبد الملك وابنة عمه ، وولدت له عبد العزيز ومحمّداً وعائشة[1] .

* وأجمع كلُّ مَنْ ترجم سيرة أمِّ البنين بنت عبد العزيز أنّها إحدى فضليات النِّساء في عصرها ، فهي ممن صرفنَ أوقاتهنَّ في اقتناص العلم والفقه ، وانصرفنَ إلى عبادةِ الله عزَّ وجلَّ ، فقد تلقّتِ العلمَ عن أكابر العلماء وجلّةِ التّابعين .

* ذكرها أبو زرعة في طبقاته فيمن حدَّث بالشّام من النّساء فقال : أمُّ البنين ابنةُ عبد العزيز بن مروان ، وروى عنها ابن أبي عَبْلة[2] .

---

(١) نسب قريش (ص ١٦٥) ، وتاريخ دمشق (ص ٤٨٠) .

(٢) إبراهيمُ بنُ أبي عبلة ـ واسم أبي عبلة ـ شِمْر بن يقظان الشّاميّ ، التّابعيّ أبو إسماعيل ، روى عن عدد من الصّحابة والتّابعين ، وكان ثقةً ، صدوقاً ، فصيحاً ، فاضلاً ، له أدبٌ ومعرفةٌ ، ويقول الشّعر الحَسَن . قال ابن المديني : كان أحد الثّقات ، وقال ابن معين ودحيم ويعقوب بن سفيان والنّسائي : ثقة ، وأثنى عليه =

* وذكرها أبو نصر بن ماكولا في « الإكمال » فيمن حدّث وروى عنها فقال : أمُّ البنين بنتُ عبد العزيز بن مروان أخت عمر بن عبد العزيز ، روى عنها إبراهيم بن أبي عبلة .

* * *

جَوَانِبُ مُضِيئَةٌ :

* كانت أمُّ البنين ـ رحمها الله ـ على جانبٍ عظيم من التَّفَقُّهِ في أمور الدِّين ، كما كانت من العابدات الموصوفات في صدر الإسلام ، فكانت كثيرة الصَّلاة والاستغراق في مناجاة الله عزَّ وجلَّ ، حتى إنَّها تكاد تنسى مَنْ حولها ، فقد أُثِرَ عنها أنَّها كانت تبعثُ إلى نسائها وأهلها ، فيجتمعنَ ويتحدَّثنَ عندها ، ثمَّ تَعْمَدُ إلى الصَّلاة فتقف طويلاً بين يدَيِّ اللهِ عزَّوجلَّ ، وبعد أنْ تصلي ما شاء الله أنْ تصلي تنصرف إليهن وتقول : أحبُّ حديثكن ، ولكنّي إذا قمتُ في صلاتي لهوتُ عنكن ونسيتُكن .

* وكانت ـ رحمها الله ـ دائمةَ الذِّكْرِ لله سبحانه ، موصولة القلب بكتابه الكريم ، تتعاهد القرآن صباح مساء ، فلا تكاد تُرى إلا وهي تالية للقرآن خاضعة لذكر الرحمن ، ومن الإنصاف أنْ نشيرَ إلى أنَّ زوجَها الوليد بن عبد الملك ـ الذي أنشأ جامع بني أميّة ـ كان يختمُ القرآن في

= الدّارقطني والبخاريّ وغيرهما من أكابر العلماء ـ توفي سنة (١٥٢ هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ (تهذيب التهذيب : ١/١٤٢ و ١٤٣) ، و (تقريب التهذيب : ١/٣٩) .

كلّ ثلاث مرة ، وختم في رمضانَ سبع عشرة ختمة[1] ، فكانت زوجه أمّ البنين تُسابقُه في هذه الفضيلة الكريمة .

* أمّا خشيتها لله عزّ وجلّ فكانت شيئاً آخر ، يختلفُ عما كانت عليه عامّة النّساء ، فإذا ما ذُكِرَ اللهُ عزّ وجلّ ، استشعرتْ خشيته ومهابته في قلبها ، ورأتْ بنورِ بصيرتها أنّ السُّعداء همُ الذين يخافون الله ، ومنْ أقوالها في هذا : ما تحلّى المتحلّون بشيءٍ أحسن عليهم منْ عظيمِ مهابةِ اللهِ عزّ وجلّ في صدورهم .

* وكانت تتقرّبُ إلى اللهِ عزّ وجلّ بكلّ ما يُرضيه ويقرّبها إليه . ومنْ صور حياتها الوضيئة ما ذكره ابنُ الجوزيّ ـ رحمه الله ـ أنّها كانت تعتقُ في كلّ جمعة رقبة ، وتحملُ على فرس في سبيل الله عزّ وجلّ .

* وبلغت هذه التّابعية مكاناً عليّاً في مجال الورعِ والخوفِ من الله سبحانه ، فلا تكادُ امرأة تصلُ إلى درجتها في ذلك ، إذ كانت تتحرى أمورها بدقةٍ وتعقّلٍ ، فلا تكاد تقبل عَرَضاً أو مالاًجاء إلا من وَجْهٍ شَرعيّ ، وترفض كلّ « هدية » جاءت من أي مصدر غير مشروع ، ففي كتابه النّفيس « تاريخ الأمم والملوك » روى الطّبريُّ قصة تشير إلى شدة ورعها فقال :

* حجّ الوليدُ بنُ عبد الملك ؛ وحجّ محمّد بن يوسف من اليمن ، وحملَ هدايا للوليد ، فقالتْ أمُّ البنين للوليد ـ زوجها ـ : يا أمير المؤمنين اجعل لي هدية محمّد بن يوسف ؛ فأمر بصرفها إليها . فجاءت

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٢٤٧) .

رسلُ أمّ البنين إلى محمّد بن يوسف فيها فأبى وقال :

ينظر فيها أمير المؤمنين فيرى رأيه ـ وكانت هدايا كثيرة ـ .

فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنّك أمرتَ بهدايا محمّد بن يوسف أنْ تُصرَف إليّ ، ولا حاجة لي بها .

قال : ولِمَ ؟ .

قالت : بلغني أنّه غصبَها النّاس ، وكلّفهم عَمَلَها وظلَمهم . وحمل محمّد بن يوسف المتاع إلى الوليد .

فقال له الوليد : بلغني أنّك أصبتَها غصباً .

قال : معاذ الله ! .

فأمرَ الوليد ، فاستُحلِفَ بين الرُّكن والمقام خمسين يميناً بالله ما غصب شيئاً منها ، ولا ظلم أحداً ، ولا أصابها إلا من طَيّب ؛ فحلفَ ، فقبلها الوليد ودفعها إلى أمّ البنين ، فماتَ محمّد بن يوسف باليمن ، أصابه داءٌ تقطّعَ منه[1] .

* * *

جُودُ أمّ البنينَ وسَخاؤها :

* قيل لأمّ البنين ـ رحمها الله ـ : ما أحسن شيء رأيت ؟ . قالت : بِعَمِ اللهِ مُقْبِلَة عليّ[2] .

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٣٠) .

(٢) بهجة المجالس للقرطبي (١/١١٩) .

* ومما يسرُّ النفوس في سيرة أمِّ البنين ، ذلك الكرم الذي فُطِرَتْ عليه ، ولها مع الجود والكرم أخبارٌ تدلُّ على نُبْلِ شخصيتها وحُسْنِ طباعها ، وكمال أدبها ، واعترافها بنعم الله عزَّ وجلَّ وشكرها لله على إنعامه عليها .

* وقد ورثتْ كرمها عن أبيها عبد العزيز بن مروان ؛ الذي كان شديد الكرم ، وكان يذمُّ البخلَ والبخلاء ومن أقواله في هذا المجال : لو لم يدخلْ على البُخلاء في بخلهم إلا سوء ظنّهم بالله عزَّ وجلَّ لكان عظيماً .

* وكانت لأمِّ البنين في قلوبِ النَّاس محبّة عظيمة لمآثرها وكريم أفعالها ، واصطناعها المعروف معهم ، فكانت ترى أنَّ الإنفاق والجود مدعاة إلى زيادة الرِّزق .

* ومن عيون أخبار أمِّ البنين مع الكرم أنَّها كانت تدعو النِّساء إلى بيتها ، وتكسوهن الثِّياب الحسنة ، وتعطيهن الدَّنانير ، وتقول : الكسوةُ لكُنَّ ، والدَّنانير اقسمْنَها بين فقرائكن ـ تريدُ بذلك أنْ تعلّمهن وتعودهن على البذلِ والجود ـ .

* ولأمِّ البنين أقوالٌ مأثورة في الجود والكرم ، تدلُّ على حبِّها الشَّديد للخير واصطناعه ، ومن أبدع ما قالته في هذا المجال ، ما ذكره راويتها إبراهيم بن أبي عبلة قال : سمعتُ أمَّ البنين أخت عمر بن عبد العزيز تقول :

أُفٍ للبخل ، والله لو كان ثوباً ما لبسته ، ولو كان طريقاً ما سلكته[1] .

* وكانت تقول أيضاً :

البخلُ كلُّ البخل مَنْ بخلَ على نفسه بالجنَّةِ[2] .

فقد كانت ـ رحمها الله ـ ترى أنَّ السَّخاءَ يؤدي إلى الجنَّةِ مع صالحِ الأعمال .

* ويبدو أنَّ أمَّ البنين قد أحبَّتْ بَذْلَ المال وإنفاقه في طُرُقٍ مشروعة لتشعر بنعمة الله عليها ، ولم تكنِ الدَّراهم والدَّنانير تعرفُ إلى بيتها سبيلاً ، فسرعان ما تنفقها ، ولله درّ الشَّاعر فكأنه عَناها بقوله :

وإنِّي امـــرؤٌ لا تستـقـــرُّ دراهمي
عـلى الكفِّ إلا عـابرات سبيـل

* ومن أقوالها المأثورة في الكرم : جُعِلَ لكلِّ قوم نَهمة في شيءٍ ، وجعلتُ نهمتي في البَذْلِ والإعطاء ، والله للصِّلةُ والمواساة أحبّ إليَّ من الطَّعام الطَّيب على الجوع ، ومن الشَّراب البارد على الظَّمأ[3] .

* ولشـدة حرصهـا على الإنفـاق ، ووضْعِ المـال في مواضعه ، واصطناع آيات المعروف كانت ـ رحمها الله ـ تقول : ما حسدتُ أحداً قطّ على شيءٍ إلا أنْ يكونَ ذا معروف ، فإني كنتُ أحبُّ أنْ

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٨١) ، وبهجة المجالس (٦٢٧/١) .
(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقي (ص ١٨٦) .
(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢٤٧/٤) .

أشركه في ذلك .

* ومن روائع أقوالها الناصعة في هذا :

وهل يُنال الخيرُ إلا باصطناعه ؟ ! .

* فمن جملة اصطناعها للمعروف، والإعانة عليه، ما ورد أنَّ الثُّريا [1] بنت عليّ بن عبد الله ، لما مات زوجها سُهيل عنها ـ أو طلقها ـ خرجت إلى الوليد بن عبد الملك ، وهو خليفة بدمشق ، في دَيْنٍ كان عليها ، فبينا هي عند زوجه أمّ البنين بنت عبد العزيز ، إذ دخل عليها الوليد ؛ فقال : مَنْ هذه عندك ؟ . قالت أمُّ البنين : الثُّريا بنت عليّ جاءتني أطلبُ إليك في قضاء دَين عليها وحوائج لها . فقُضيتْ حوائجُها ، وانصرفت شاكرة لأمّ البنين وزوجها الوليد[2] .

* * *

مَكانَتُها الرَّفيعة :

* عُرفت أمُّ البنين ـ رحمها الله ـ بأنَّها ذات رأي نافذ ، وأدب وافر ، وخصال محمودة ، ولذا فقد كان عمُّها الخليفة عبد الملك بن مروان يحفظ مكانها ويجلّها ويكرمُها ويعرف لها جاهها ، ويقضي لها حوائجها ، فهي ابنة أخيه وزوج ابنه الوليد ـ ولِيّ عهده ـ .

---

(١) الثريا هذه : هي الثريا بنت علي ، وزوجها هو سُهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهريّ ، وفيها وفي زوجها يقول عمر بن أبي ربيعة ، وضرب لهما المثل بالنجمين :

أيها الناكح الثريا سهيلاً ... عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلّت ... وسهيل إذا استقلّ يماني

(٢) عن زهر الآداب للحصري (١/٢٥٨) بتصرف يسير .

* وكانت أمُّ البنين ـ رحمها الله ـ هي السَّبب في حَقْنِ دم عُبيد الله بن قيس الرُّقيّات[1] من سطوة عبد الملك ، ذكروا أنَّ عُبيد الله بن قيس الرّقيات كان منقطعاً إلى مصعب بن الزُّبير يمدحه ، فلما قُتِلَ مصعب طلبه الخليفة ، فالتجأ عُبيد الله إلى عبد الله بن جعفر الطَّيار[2] ـ رضي الله عنهما ـ لعلَّه يشفع له عند عبد الملك بن مروان ، وهنا أخبره عبد الله بن جعفر بحقيقة أمره فقال له : ويحك ، ما أجدهم في طلبك ، وأحرصهم على الظَّفر بك ؛ ولكنّي أكتبُ إلى أمِّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وعبد الملك أرقّ شيء عليها .

فكتب عبد الله بن جعفر إليها ، يسألها التَّشفّع إلى عمِّها عبد الملك لعبيد الله بن قيس الرّقيات .

فلما وصلها الكتاب ، دخلتْ على عمِّها ، وألقتِ السَّلام ، فسألها ـ كعادته ـ : هل من حاجة ؟ .

قالت : نعم يا عمّاه ، لي حاجة .

---

(١) هو عبيد الله بن قيس الرّقيات : شاعر قريش في العصر الأموي . كان مقيماً في المدينة وقد نزل الرقة . وخرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان ، ثم انصرف إلى الكوفة بعد مقتل ابني الزبير (مصعب وعبد الله) فأقام سنة . وقصد الشام فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فسأل عبد الملك في أمره ، فأمّنه ، فأقام إلى أن توفي . أكثر شعره الغزل والنسيب ، وله مدح وفخر . توفي نحو سنة (٨٥ هـ) .

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، الهاشمي القرشي : صحابي ، وُلد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها ، وهو أول من وُلد بها من المسلمين . وكان كريماً يُسمّى بحر الجود ، وللشعراء فيه مدائح . وكان أحد الأمراء في جيش علي يوم « صفين » ومات بالمدينة سنة (٨٠ هـ) .

فقال : قد قضيتُ كلَّ حاجة لكِ ، إلّا ابن قيس الرّقيات .

فقالت : لا تستثنينّ عليَّ يا أمير المؤمنين .

فنفخ بيده ، فأصاب حُرُّ وجهها ـ ما بدا من الوجنة ـ ، فوضعتْ يدها على خدّها ، وتأثّرتْ أشدَّ الأثر ، وأطرقت برأسها إلى الأرض .

فقال عبد الملك لها : ارفعي يدك يا أمَّ البنين ، قد قضيتُ كل حاجة لك ، وإن كانت ابن قيس الرّقيات .

فوضعتْ يدها عن خدها وقالت : حاجتي ـ يا أمير المؤمنين ـ أنْ تؤمنه ، فقد كتب إليَّ يسألني ، أنْ أسألك ذلك .

قال : هو آمن .

وحظيَ عُبيد الله بن قيس الرّقيات بالأمان من عبد الملك ، وشكر لأمّ البنين وساطتها وصنيعها ، فقد أنقذته من موت محقق ، وأُبدِلَ من بعد الخوف بأمن وطمأنينة ، وامتدح بعد إذ عبد الملك بقصيدة مشهورة[1] .

* * *

أُمُّ البَنِيْنَ والحَجّاج :

* في حياة هذه المرأة جوانب مضيئة ، وخلال حميدة ترقى بها إلى درجة الأُوَل من النّساء في المآثر الحسنة ، فقد كانت ـ بالإضافة إلى ما

---

(١) انظر الفرج بعد الشدة للتنوخي (٤/٢٨٢ ـ ٢٨٥) بشيء من الاختصار والتصرف .

مرّ معنا ـ تمتلك ناصية البيان ، وتفرع بالحجة القوية خصومها ، وأوتيت فوق هذا وذاك قلباً ثابتاً ، وعزيمةً قويةً ، إذ اشتهرت بمواقف وضيئةٍ من هذا القبيل مع الحجاج بن يوسف الثّقفيّ الذي ألجمته بجرأتها وفصاحتها ، وإقامة الحجّة عليه بالمنطق ، وقد ساقتِ المصادر المتنوعة موقف أمّ البنين هذا ، وشهدت لها بالفضل ومضاء القلب ، وشفاء النّفوس .

تقول المصادر :

قدمَ الحجّاج بن يوسف الثّقفيُّ على الوليد بن عبد الملك ، فأذن له بالدّخول ، فدخل ؛ وعليه عمامة سوداء ، وقوسٌ عربية ، وكنانة ، فبعثتْ إليه أمُّ البنين فقالت : مَنْ هذا الأعرابي المستلئم ـ المتسلح ـ في السّلاح عندك ، وأنتَ في غلالة عرزٌ .

فأرسل إليها أنه الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ .

فراعها ذلك ، وأوجستْ خيفة في نفسها وقالت :

والله ، لأن يخلو بك مَلَكُ الموت ، أحبّ إليَّ من أنْ يخلوَ بك الحجّاج بن يوسف ، وقد قَتَل الخلق وأهل الطّاعة ظلماً وعدواناً .

فعرف الحجّاج رأي أمّ البنين ، فقال للوليد :

يا أمير المؤمنين ، دع عنك مغاكهة النّساء بزُخرف القول ، فإنّما المرأة ريحانة ، وليس بقهرمانة ، لا تطلعهن على أمرك ، ولا تطمعهن في سرّك ، ولا تستعملهن بأكثر من زينتهن ؛ وإياك ومشاورتهن ، فإنّ رأيهن إلى أفن ، وعزمهن إلى وهن ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوزُ

نفسها ، ولا تطمعها أنْ تشفعَ عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوسَ معهن ، فإنَّ ذلك أوفر لعقلك وأبينَ لفضلك .

ثم نهض الحجّاج وخرج من عند الوليد .

فدخل الوليد على أمّ البنين ، فأخبرها بمقالةِ الحجّاج ورأيه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أحبُّ أنْ يأمرَه أمير المؤمنين بالتّسليم علي غداً .

قال : أفعل .

فغدا الحجّاج على الوليد فقال : ائت أمَّ البنين فسلّم عليها .

فقال : اعفني من ذلك يا أمير المؤمنين .

فقال الوليد : لتفعلنّ ، فلا بدّ من ذلك .

* وسُقِطَ في يد الحجّاج ، فهو يعلم رأيها فيه ، وفي محمّد بن يوسف مِنْ قَبْلُ ، واللقاء معها لا يبشّرُ بخير ، ولكنْ ، ليسَ في الأمر حيلة ، ولا مخرج له من هذا الموقف المحرج .

فمضى إليها ، وأتى مكانها ، فحجبتْهُ طويلاً ، ثمّ أذنت له ، وتركته قائماً ولم تأذنْ له في الجلوس ، ثم قالت له : أنتَ الممتنُّ على أمير المؤمنين بقتل ابن الزّبير وابن الأشعث ؟ .

ثم ذكرتْ له قتْل عبد الله بن الزُّبير ، وعددتْ له فظائعه وأنكرتْ عليه قوله بالأمس ـ بالنّساء ـ مع زوجها الوليد ، وذكرت له قبح منظره وسوء خلقه ، ثم قالت تعرّض به :

قاتل الله الذي يقول وسِنَان غزالة الحروريّة[1] بين كتفَيْكَ :

أسَدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ
ربداءُ تنفرُ من صفير الصَّافِرِ
هلاَّ بررتَ إلى غزالةَ في الوغى
أمْ كان قلبك في جناحَي طائر

---

(١) غزالة الحروريّة : امرأةُ شبيب بن يزيد الشَّيباني ، قائد الخوارج وبطلهم ، وُلدتْ بالموصل وهي من شهيرات النِّساء في الشَّجاعة والفروسية ، وكانت من القادة الذين دوّخوا البلاد وروعوا الجيوش وملؤوا القلوب أثراً ، والأفواه خبراً ، والأرض عبراً . خرجت مع زوجها على عبد الملك بن مروان سنة (٧٦ هـ) أيام ولاية الحجّاج على العراق ، فكانتْ تقاتلُ في الحروب قتال الأبطال الأشداء .
ومن أخبارها أنها تعرضتْ للحجّاج بن يوسف في إحدى الوقائع ، فاختلط عليه الأمر ، وخلعَ الفزعُ قلبه ، فولّى هارباً ، ودخل الكوفة ، فعيّره عمران بن حطان بذلك في القصيدة المشهورة :
« أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامةٌ ... » .
وبلغ من جَسَارتها وقوة قلبها أنها أقسمتْ لتصلينّ في مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ في الأولى سورة « البقرة » وفي الثانية سورة « آل عمران » والكوفة يومئذ معقل الحجّاج ودار إمرته ، ومجتمع قوته ؛ وقد برّتْ غزالة بقسمها ، ودخلتْ مسجد الكوفة هي وزوجها ، ولبثتْ تصلي ركعتين تستفتان نصف النهار ، ولما أُخبر الحجاج بها ، أوجسَ في نفسه خيفة منها . هذا وقد هزمتْ غزالةُ للحجّاج خمسة جيوش حتى أصبحتْ طباق العراق ترتجفُ لاسمها ، وفي ذلك يقول أيمن بن خريم :

أقامتْ غزالةُ سوقَ الضِّراب ... لأهل العراقين شهراً قميطا
ستت للعراقين في جمعها ... فلاقى العراقان منها بَطيطا

وقد قُتلت غزالة خدعة في موقعة الكوفة بين شبيب زوجها ، وبين الحجّاج بن يوسف ، قتلها خالد بن عتاب الرِّياحيّ في سنة (٧٧ هـ) .

صـــدعت غزالة قـلبـــه بفـوارس
تـــركتْ نـــواظـــره كأمس الدَّابـــر

ثم أمرتْ جاريةً لها ، فأخرجته مقبوحاً مذموماً مدحوراً ، فلما دخلَ على الوليد سأله فقال : ما كنتَ فيه يا أبا محمّد ؟ . قال : والله يا أمير المؤمنين ، ما سكتُّ حتى كان بطن الأرض أحبّ إلي من ظهرها ؛ فضحكَ الوليد حتى فحص برجله وقال : يا حجاج ، إنّها ابنة عبد العزيز بن مروان[1] .

* وبعـد ، فهـذه أمُّ البنـين بنت عبـد العزيز ، إحدى النّسـوة الفاضلات في عصر التّابعين ، ذات الأثر المحمود ، والفضل المشهود ، والعقل المنير .

* فرحـم الله أمَّ البنين التي بَنَتْ قصوراً من المحامد ، وغفر لها ، وأجزل مثوبتها ، وأدخلها بكرمه وعفوه الجنّة .

* * *

(١) انظر الأخبار الموفقيات (ص ٤٧٦ ـ ٤٧٩) ، ووفيات الأعيان (٢/٤٤ و ٤٥) ، وعيون الأخبار (١/١٦٩) ، والعقد الفريد (٥/٤٣) ، ومروج الذهب (٣/١٦٧ ـ ١٦٩) بشيء من التصرف .
ومن الجدير بالذكر هنا أنْ نشير إلى رأي الإمام الذّهبيّ ـ رحمه الله ـ في الحجّاج إذ قال : وله حسناتٌ مغمورةٌ في بحر ذنوبه وأمره إلى الله . (سير أعلام النبلاء : ٤/٣٤٣) وقال فيه ابن حجر ـ رحمه الله ـ : كان فصيحاً بليغاً فقيهاً ، وكان يزعم أنَّ طاعة الخليفة فرضٌ على النّاس في كلّ ما يرونه ويجادل عن ذلك (تهذيب التهذيب : ٢/٢١٠) . وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : كان حريصاً على الجهاد ، وفتح البلاد ، وكان يعطي على القرآن كثيراً (البداية والنهاية : ٩/١٣٩) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

أم الدرداء الصغرى

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

www.dawahmemo.com

(٨)

أمّ الدّرداء الصّغرى

• قال ابن كثير :

كان الرجال يقرؤون عليها ، ويتفقهون في الحائط الشمالي بجامع دمشق .

• وقال عون بن عبد الله :

كُنّا نأتي أم الدرداء فنذكر الله عندها .

• وقال ابن عساكر :

كانت زاهدة فصيحة .

• وقال النووي :

كانت فقيهة حكيمة .

أُمُّ الدَّرْدَاءِ الصُّغْرَى

مِنْ سَيِّدَاتِ التَّابِعِيَاتِ :

* إذا ذُكِرتِ النِّساءُ التَّابعيات ، فهي ـ ولا شكَّ ـ من أبرزهنَّ ، ومن أولي المكانة فيهن وبينهن .

قال ابنُ أبي داود : سيِّدتا التَّابعيَّات : حفصة بنت سيرين[1] ، وعمرة بنت عبد الرحمن[2] ، وتليهما أمّ الدّرداء .

* وأمّ الدّرداء صاحبة السِّيرة في هذه الصَّفحات ، هي هُجَيمة بنت حُيي الوصَّابية ؛ ويقال : الأوصابية[3] ، زوج الصَّحابي الجليل أبي الدَّرداء ـ عُويمر بن زيد ـ رضي الله عنه ـ .

* وكان لأبي الدَّرداء ـ رضوان الله عليه ـ امرأتان : كلٌّ واحدة منهما يُقال لها : أمّ الدّرداء ؛ وهما : كُبْرى صحابية ، وصُغْرى تابعية . وقد تزوّج التّابعية بعد وفاة الصَّحابية . واسم الصَّحابية : خَيْرة بنت أبي حَدْرد الأسلمية ، لها صحبةٌ وروايةٌ عن النبيِّ ﷺ ، وقد توفيت بالشَّام في خلافة عثمان[4] ـ رضي الله عنهما ـ .

---

(١) و (٢) اقرأ سيرة حفصة بنت سيرين ، وعمرة بنت عبد الرحمن في هذا الكتاب .

(٣) تاريخ دمشق (ص ٤١٨) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٠) ، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٧) .

(٤) توفي أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ في سنة (٣١ هـ) .

* وأمُّ الدَّرداء الصُّغرى ، ليس لها صحبةٌ ولا سماعٌ من النَّبي الكريم ﷺ ، وإنَّما هي تابعية من سيدات عصر التَّابعين من أهل دمشق الشَّام .

* * *

زَوَاجُهَا مِنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ :

* نشأت أمُّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ يتيمةً في حجر أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ ، إذ ربَّاها على حبِّ الله سبحانه وتعالى ، وحبِّ النَّبيِّ محمد ﷺ ، وأحسن تربيتها كلَّ الإحسان ليعلِّمه بما عند الله عزَّ وجلَّ من ثوابٍ لكافل اليتيم .

* وكانت تختلفُ مع أبي الدَّرداء إلى المسجدِ في بُرُنُس[1] تُصلي في صفوف الرِّجال ، وتجلسُ في حِلَق القُرَّاء ، وحفَّاظ القرآن الكريم ، تتعلَّمُ آياته وعلومه ، وتتلقَّى التِّلاوة من أفواه الصَّحابةِ ، وكبار القُرَّاء والعلماء ، حتى غدتْ مِمَّنْ يتقن تلاوته وقراءته إتقاناً رائعاً ، وعرضتِ القرآنَ ـ وهي صغيرة ـ على سيِّدنا أبي الدرداء ، فأُعجب بحفظها ، ودقة تلاوتها له ، فأكرمَ مثواها ، وحثَّها على المضي في هذا الطَّريق الوضيء .

---

(١) مِنْ أنواعِ الأَلبسة التي عرفها المسلمون في صَدْر الإسلام البُرنس . وذكر الجوهري في « الصَّحاح » أنَّ البُرنسَ قلنسوة طويلة .
وكان النُّساك يلبسونها في صدر الإسلام . وقيل : البرنس كلُّ ثوب رأسه منه ملتزق به دراعة كان أو جبة .
وذكر الإمام الشَّافعي ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم النَّفيس « الأمّ » (١٢٦/٢) أنَّ البرنس من الملابس التي منع الرسول ﷺ أنْ يلبسَ المحرم في إحرامه .

* ولما شبت أمُّ الدّرداء عن الطّوق ، اعتزلت صفوف الرّجال ، ولحقت بالنّساء بإشارةٍ من أبي الدّرداء حيثُ قال لها : الحقي بصفوف النّساء .

* ونشأت هُجيمة ـ أمّ الدّرداء ـ على حبّ العلم ، والشّغف بالعبادة ، وطلب الزهد ، كما أنّ الله عزّ وجلّ قد حَباها بنعمةٍ من كمال العقل ، وأنعم عليها بالحُسْن والجمال .

* ولما بلغت مبلغ النّساء ، تزوّجها أبو الدرداء ، ومنه أخذت كنيتها ـ أمّ الدّرداء ـ ، فأصبحتْ مشهورة بها ، وكادت تغطي على اسمها الحقيقي هُجيمة .

* وأخذت أمُّ الدّرداء تتعلّم من زوجها ، فروتْ عنه علماً جمّاً ، رفعها إلى مصافّ العالمات الفاضلات الفقيهات في عَصْر التّابعين ممن تركن أنصَعَ الآثار الكريمة في صفحات النّساء .

* * *

مِنْ أَخْبَارِهَا مَعَ زَوْجِهَا :

* على الأخلاق الفاضلة ، وعلى الخصال الحميدة ، نشأت أمُّ الدّرداء ، فكانت مَثَل الزّوجةِ الصّالحةِ ذات القدوة الحسنة لغيرها من النّساء ، فقد كانت تصغي لكلّ ما يقوله زوجها ، وتستمعُ إلى نصائحه التي تديم المودة بينهما ، فاسمع إلى واحدة من هذه النّصائح لها :

يا أمّ الدّرداء ، إذا غضبتِ أرضيتُكِ وإذا غضبتُ فأرضيني ، فإنّك

إنْ لم تفعلي ذلك فما أسرعَ ما تَفْتَرِق .

* وكانت هذه الكلمات ملء سمعها ، فكانت تحسنُ إلى أبي الدَّرداء ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، فهي تَعْلَمُ مكانته من رسول الله ﷺ ، كما تعلم مكانته الرَّفيعة بين الصَّحابة الكرام ؛ إذْ هو عَلَمٌ منْ أعلامهم ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

* وقد تعلَّمتْ أمّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ القناعة ، والاعتماد على النَّفس ، من ذلك ما روته عن إحدى نصائحه لها في هذا المضمار النَّفيس فقالت :

قال لي أبو الدرداء : لا تسألي أحداً شيئاً .

فقلتُ : إن احتجت ؟ .

قال : تتبّعي الحصّادين ، فانظري ما يسقط منهم فخذيه فاحبطيه ، ثم اطحنيه ثم اعجنيه ثم كليه ، ولا تسألي أحداً شيئاً[1] .

* وحدّثتْ أنّ أبا الدَّرداء كان يجيءُ بعدما يصبح فيقول : أعندكم غداء ؟ فإنْ لم يجدْ قال : فأنا إذاً صائم[2] .

* وكانت أمُّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ تُكْثِر هذه الصِّفات في زوجها ، فكانت تتهلل إلى الله عزَّ وجلَّ أنْ يجعلها معه في الجنَّةِ فقد ورد أنَّها قالت :

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٢٦) ، وسير أعلام النبلاء (٤/٢٧٨) .
(٢) المعرفة والتاريخ للبسوي (٢/٦٦) .

* اللهم إنَّ أبا الدَّرداء خطبني فتزوَّجني في الدُّنيا ، اللهم فأنا أخطبه إليك ، فأسألك أنْ تزوّجنيه في الآخرة .

فقال لها أبو الدّرداء : فإن أردت ذلك ، فكنتُ أنا الأول ـ أيّ متُّ قبلك ـ فلا تتزوّجي بعدي .

فمات أبو الدَّرداء فخطبها معاوية فقالت : لا والله ، لا أتزوّج زوجاً في الدّنيا حتى أتزوج أبا الدَّرداء إنْ شاء الله في الجنَّةِ ، فإني سمعت أبا الدَّرداء يقول :

سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول : « المرأةُ للآخرِ من أزواجها » ولستُ أريد بأبي الدَّرداء بدلاً ، وإنّي سألتُ أبا الدَّرداء أنْ يسأل الله عزَّ وجلَّ أنْ يجعلني زوجته في الجنّةِ .

فبعثَ إليها معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنْ عليكِ بالصِّيام ، وظلّت أم الدّرداء على العهد إلى أنْ لقيت الله عزَّ وجلَّ .

* * *

في رِحَابِ الرِّوَايَةِ :

* لا عجب أن نجدَ امرأة كأمِّ الدّرداء بلغتْ منزلة كبيرة في الفقه والتّفسير والعلم ، إذا علمنا أنّها تلقّت معارفها عن كبار الصَّحابة وفي مقدمتهم زوجها الإمام القدوة ، قاضي دمشق ، وصاحب رسول الله ﷺ أبو الدَّرداء أحد حكماء أمّة الإسلام وسيّد القراء بدمشق ، وممن

جَمَعَ القرآن الكريم[1] في حياة رسول الله ﷺ ، وروى (١٧٩) حديثاً عن النبي ﷺ ، وفيه قال عليه الصَّلاة والسَّلام : « حكيمُ أمتي عُويمر » .

* ولم تقتصر أمُّ الدَّرداء في تحصيلِ علومها عن زوجها فحسب ، بل روت عن سلمانَ الفارسيّ ، وأبي مالك الأشعري واسمه كعب بن عاصم ، وأبي هريرة ، وفضالة بن عبيد ـ رضي الله عنهم ـ ؛ كما روت عن أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ .

* وتخرّج من مدرسة أمّ الدّرداء عددٌ من أكابر العلماء وجلّة التّابعين منهم : جُبير بن نُفير ، وأبو قلابة الجَرْمي ، ورجاء بن حَيْوة ، ويونس بن ميسرة ، ومكحول الشّامي[2] ، وغيرهم كثيرون جداً .

---

(١) عن أنس رضي الله تعالى عنه : مات النبي ﷺ ، ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدّرداء ، ومعاذ ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . أخرجه البخاري (٩/٤٧ و ٤٨) في فضائل القرآن . وأبو زيد : هو سعد بن عبيد بن النعمان الأنصاري .
ومن الجدير بالذكر والمفيد أيضاً ، أنّ القصْر في هذا الحديث إضافيٌّ لا حقيقيٌّ ، فقد حفظ القرآن جميعه الجمّ الغفير من الصَّحابة الكرام رضوان الله عليهم ، وقد سَرَدَ أسماءهم الحافظُ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في فتح الباري (٩/٤٧ ـ ٥٣) فليراجع .

(٢) مكحول بن أبي مسلم ، أبو عبد الله الدمشقيّ : فقيه الشّام في عصره ، من حفّاظ الحديث ، أصله من فارس ، رحل في طلب الحديث إلى العراق ومصر والمدينة وغيرها ، ثم استقرّ في دمشق . قال ابن يونس : كان فقيهاً عالماً ، واتفقوا على توثيقه . وقال أبو حاتم : ما أعلم بالشّام أفقه من مكحول . توفي بدمشق سنة (١١٢ هـ) وقيل (١١٨ هـ) رحمه الله تعالى .
(تهذيب الأسماء واللغات : ٢/١١٣ و ١١٤) ، و (الأعلام : ٧/٢٨٤) .

* وروى لها الإمام مسلم في صحيحه ، وكذلك أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه في سننهم[1] .

* وفي طبقاته ذكرها ابن سُميع في الطَّبقة الثَّانية من تابعي أهل الشَّام .

* * *

مِمَّا رَوَتْهُ أُمُّ الدَّرْدَاءِ :

* عن أمِّ الدَّرداء عن أبي الدَّرداء قال :

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أصبحَ معافىً بدنه ، آمناً سِرْبُه ، عنده قوت يومه فكأنَّما حِيزت له الدُّنيا . يابن جُعْشُم ، يكفيك منها ما سدّ جوعتك ، ووارى عورتك ، وإنْ كان ثوباً يواريك فذاك ، وإن كان دابّة تركبها فبخ ، فلَقُ الخبز ، وماء الحَرّ ، وما فوق ذلك حساب »[2] .

* ومن مروياتها التي تدلُّ على فقهها وعلمها بالسُّنَّة المُطَهَّرة ، ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث صفوان بن عبد الله بن صفوان ـ وكانت تحته الدَّرداء ـ قال :

قدمتُ الشَّام ، فأتيتُ أبا الدَّرداء في منزله فلمْ أجِدْه ، ووجدت أمَّ الدَّرداء فقالت : أتريدُ الحجَّ العامَ ؟ .

---

(١) الأعلام (٧٧/٨) .

(٢) جامع الأصول (١٣٥/١٠) و « فلَقُ الخبز » : هي كِسَره ، و « الحرّ » : جمع مفردها الحرة ، وهي آنية من خز .

فقلتُ : نعم .

قالت : فادعُ اللهَ لنا بخيرٍ ؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول : « دعوةُ المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ؛ عند رأسه مَلَكٌ موكَّلٌ ، كُلَّما دعا لأخيه بخيرٍ قال المَلَك الموكَّل به : آمين ولك بمثْل » .

قال : فخرجتُ إلى السُّوق فلقيتُ أبا الدَّرداء فقال لي مثل ذلك ، يرويه عن النَّبيِّ ﷺ (١) .

* وأخرجَ الإمام مسلم أيضاً بسنده عن أمِّ الدَّرداء قالت : حدَّثني سيِّدي ـ تعني أبا الدَّرداء ـ أنَّه سمعَ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ دعا لأخيه بظهر الغيب قال المَلَكُ الموكَّل به : آمين ، ولكَ بِمِثْل »(٢) .

* * *

صُوَر من عِبَادتِها وطَاعتِها :

* كانت أوقاتُ أمِّ الدرداء ـ رحمها الله ـ كلُّها معمورة بالطَّاعة والعلم والعبادة ، وكان بيتها موئلاً لكلِّ متبتِّلٍ أوَّاب ، وكلِّ فقيه مجتهد ، وكلِّ امرأة عابدة . وكان كثير من العبَّاد والزُّهاد يأتونها ليأخذوا عنها العلمَ والحديث ، ويذكروا الله سبحانه وتعالى .

* قال ابن كثير رحمه الله تعالى : كان الرِّجالُ يقرؤون عليها ويتفقهون في الحائط الشَّمالي بجامع دمشقَ(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم (٨/٨٦ و ٨٧) باب : فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب .
(٢) أخرجه مسلم (٨/٨٦) .
(٣) البداية والنهاية (٩/٥٠) .

* وهذا أحدُ علماء التَّابعين الثقات وهو عون بن عبد الله يقول : كنّا نأتي أمَّ الدَّرداء فنذكر الله عندها .

* أمّا النِّساء فكنَّ يصرفْنَ أوقاتهنَّ عند أمِّ الدَّرداء بالذِّكر والصَّلاة ، قال يُونس بن ميسرة : كنَّ ـ النِّساء ـ يتعبدنَّ مع أمِّ الدَّرداء يَقُمْنَ الليل كلَّه حتى إنَّ أقدامهنَّ قد انتفختْ من طول القيام .

* وواصلتْ أمُّ الدَّرداء عبادتها بالصَّلاة والذِّكر ، فلم تكن تُرى إلا وهي ساجدة قانتة ؛ وعن مواصلتها للصَّلاة يقول ميمون بن مهران : ما دخلتُ على أمِّ الدَّرداء في ساعةِ صلاة إلا وجدتُها مصلية .

ووصف الإمام مكحول الشَّامي صلاتها فقال : كانت أمُّ الدرداء تجلس في صلاتها جلْسة الرَّجل وكانت فقيهة .

* وكانت أمُّ الدرداء ـ رحمها الله ـ كلَّما زادتْ في العبادةِ والزَّهدِ ، ازدادتْ تواضعاً وتقىً ، روى هذا إبراهيم بن أبي عبلة قال : قُلتُ لأمِّ الدَّرداءِ : ادعي لنا .

قالت : أوَ بلغتْ أنا ذلك ؟ ! ـ ترى أنَّها ليست أهلاً لهذا ـ .

* ولأمِّ الدَّرداء وقفاتٌ لطيفةٌ ورائعة مع القرآن الكريم ، تشيرُ إلى تدبّرها لمعانيه وفهمها لآياته ؛ فعن أبي عمران الأنصاريّ قال : كنت أقودُ دابّة أمِّ الدَّرداء فيما بين بيت المقدس ودمشق ، فقالت لي : يا سليمان ، أسمعِ الجبالَ ما وعدها الله عزَّ وجلَّ .

قال : فأرفعُ صوتي بهذه الآية : ﴿ ويوم نسيّرُ الجبالَ وترى الأرض بارزةً ﴾ [الكهف : ٤٧] .

* ومن وقفاتها الرّائعة مع القرآن ، ما رواه سعيد بن عبد العزيز قال :

أشرفتْ أمُّ الدرداء على وادي جهنّم ـ موضع ـ ومعها إسماعيل بن عبيد الله ، فقالت : يا إسماعيل اقرأ ، فقرأ : ﴿ أفحسبتم أنّا خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : ١١٥] فخرّتْ أمُّ الدّرداء على وجهها ، وخرّ إسماعيل على وجهه ، فما رفعا رأسيهما حتى ابتلّ ما تحت وجهيهما من دموعهما .

* وفي مجال الصّبر والطّاعة ، والتّسليم لله عزّ وجلّ ، كانت أمُّ الدّرداءِ من الفئة الصّابرة الرّاضية ، ويدلُّ على هذا ما ذكره عنها يحيى بن معين رحمه الله قال :

ماتت الدّرداء قبل أمّ الدّرداء ، فلمّا دفنتها قالت : اذهبي إلى ربّك ، وأذهب إلى ربّي ، فدخلتِ المسجد .

* * *

تعليمُها للنّاسِ :

* من المآثر الكريمةِ لأمّ الدّرداء ، حرصُها الشّديد على مجالسِ العلم ، والحضّ على حضور مجالسِ العلماء ومذاكرتهم ، فعن عون بن عبد الله قال :

جلسنا إلى أمّ الدّرداء ، فقلنا لها : أملّتكِ ؟ ! .

فقالت : أمْلَلْتُموني ! لقد طلبتُ العبادة في كلّ شيء فما أصبتُ لنفسي شيئاً أشفي من مجالسةِ العلماء ومذاكرتهم ، ثم احتبتْ وأمرت

رجلاً أنْ يقرأ ، فقرأ : ﴿ ولقد وصّلنا لهمُ القول لعلهم يتذكرون ﴾ [القصص : ٥١] .

* وكانت تحثُّ مَنْ عندها على العمل ، وعلى قبول الهدية ، وترشدهم إلى صالح الأعمال ، وتوجّه جميع طبقات النّاس توجيهاتٍ لطيفة في ظلال السُّنّة النّبويّة المطهّرة ، وشهد لها بهذا عثمان بن حيّان فقال :

سمعتُ أمّ الدّرداء تقول : إنّ أحدهم يقول : اللهم ارزقني ، وقد عَلِمَ أنّ الله لا يمطرُ عليه ذهباً ولا دراهم ، وإنّما يرزقُ بعضهم من بعض ، فمن أُعطي شيئاً فليقبل ، فإنْ كان غنياً فليضعه في ذي الحاجة ، وإن كان فقيراً فليستعنْ به على حاجته ، ولا يردُّ على اللهِ تعالى رزْقَه الذي رزَقه[1] .

* وكانت أمُّ الدّرداء ـ رحمها الله ـ ترى أنّ تسبيحَ الله عزّ وجلّ أفضل العبادة ، ولهذا كانت تحثُّ على الإكثار من ذكر الله عزّ وجلّ في الصّلاة ، والصّيام ، والعمل الصّالح ، وترشدُ إلى تعريف الذّكر بكلامٍ يقطُر حكمةً وموعظةً فتقول :

ولذكْرُ اللهِ أكبر ، وإنْ صليتَ فهو منْ ذكْر الله عزّ وجلّ ،
وإنْ صُمْتَ فهو من ذِكْر الله عزّ وجلّ ،
وكلُّ خير تعمله فهو من ذِكْر الله عزّ وجلّ ،

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٣٠) تراجم النساء ، وسير أعلام النبلاء (٤/٢٧٨ و ٢٧٩) .

وكل شرّ تجتنبه فهو من ذكر الله عزّ وجلّ ،
وأفضل ذلك تسبيح الله عزّ وجلّ»[1] .

* ولم تكن أمُّ الدرداء تبخل بالنّصيحة على أحَدٍ ، لا في سفر ولا حضر ، وكانت تزرعُ الوَرَعَ في نفوسِ سامعيها بطريقة تدعو إلى العلم والعمل على حفْظِ كتاب الله عزّ وجلّ ، حدَّثَ عن هذه الخصال الكريمة فيها أبو زكريا الخزاعيّ فقال :

خرجنا في سَفَر ، فصحبنا رجلٌ ، فقالت أمُّ الدّرداء له : ما يمنعك أنْ تقرأ ، أو تذكر الله عزّ وجلّ كما يصنعُ أصحابك ؟ .

قال : ما معي من القرآن إلا سورة ، وقد رددتُها حتى أدْبرتُها ـ أشبعتها حفظاً ـ .

قالت : وإنّ القرآن ليُدْبَر ! ما أنا بالتي أُصحبُك ، إنْ شئتَ أن تتقدمَ ، وإن شئتَ أنْ تتأخرَ .

فَضَرَبَ دابته وانطلق .

ثم صحبنا رجلٌ آخر ، فقال : ـ يعني أبو زكريا الخزاعيّ ـ يا أمَ الدّرداء دعاءٌ كان يدعو به : اللهمّ اجعلني أرجو رحمتك ، وأخاف عذابك ؛ إذ يأمنك مَنْ لا يرجو رحمتك ولا يخاف عذابك ، وأسألك الأمْنَ يوم يخافون .

فقالت أمُّ الدّرداء : اكتبه ؛ فكتبتُه .

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٦١) .

* ومن خلال أعمالِ أمّ الدّرداء اليومية ، كانت تعلّم النّاس وتذكرهم بفضائل الأعمال ، مِنْ ذلك ما وردَ عن عثمان بن حيّان قال : أكلنا مع أمّ الدّرداء طعاماً ، فأعقلنا الحمد لله ؛ فقالت : يا بنيّ لا تدعوا أنْ تأدِموا طعامكم بذكر الله عزّ وجلّ ؛ أكلٌ وحمدٌ خيرٌ مِنْ أكلٍ وصَمْت .

* * *

مِنْ فَرَائِدِ حِكَمِهَا وَمَوَاعِظِهَا :

* لا عجب أنْ تجريَ الحكمةُ على لسان أمّ الدّرداء عذبةً رائعةً ، فقد تخرّجت من مدرسة حكيم الأمّةِ أبي الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ ، وقد أُثرت عنها كلماتٌ رائعةٌ رقّتْ معانيها وراقَ لفظها ، من أمثلة ذلك قولها :

أفضل العِلْم المعرفة .

* وقد كتبت لواحدٍ من تلاميذها في لوحه هذه الحكمة البليغة : تعلّموا الحكمة صغاراً ، تعلموها كباراً ـ أو تعملوا بها كباراً ـ ، وإنّ كلّ زارعٍ حاصدٌ ما زرع منْ خيرٍ أو شر[1] .

* ومن نفائس أقوالها في ذمّ الدّنيا والتّحذير من سحرها وزخرفها ، قولها :

الدّنيا أسْحَر لقلب العبد من هاروتَ وماروتَ ، وما آثرها عبد قطّ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٦٠ و ٣٦١) .

إلا صرعته ـ أذلته ـ .

* ومن حكمتها في الحياة الاجتماعية ما ورد أنّها عوتبت في شيءٍ ، فقيل لها : لِمَ كذا وكذا ؟ .

قالت : نَقَصَ النّاسُ فنقصتُ كما نقصوا .

* ومن أبدع مواعظها ، وأنصع أقوالها وتجاربها ما أورده الزّمخشري في « ربيع الأبرار »[1] أنّها قالت :

مَنْ وعظ أخاه سراً فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه .

* وعن شَهر بن حوشب عن أمّ الدّرداء قالت :

إنّما الوجل في قلبِ ابن آدم كاحتراق الشّمعة ، أما تجد لها قشعريرة ؟ .

قال : بلى .

قالت : فادع الله عزّ وجلّ إذا وجدت ذلك فإنّ الدعاء يُستجاب عند ذلك .

* ومن أقوالها البديعة في الحكمة ، ما قالته في علاج القلوب القاسية ، فقد قال لها رجل : إنّي لأجدُ في قلبي داء لا أجد له دواءً ، وأجدُ قسوة شديدة وأملاً بعيداً ، قالت : اطلع في القبور ، واشهد الموتى .

---

(١) (٣١٢/٥) .

* وأتاها هشام بن إسماعيل المخزوميّ فقال لها : ما أوثق خصالك في نفسك ؟ .

قالت : الحبُّ في الله عزَّ وجلَّ[1] .

* * *

ثَناءُ العُلَماء وأَهْل العِلْم عَلَيْها :

* حظيتْ أمُّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ على شهادات موقّعةٍ من أكابر العلماء بالثّناء عليها لتقدمها في المعرفة والعلم والعبادة والفضائل .

* فقال مكحول ـ رحمه الله ـ : كانت أمُّ الدَّرداء فقيهة .

* وقال ابن عساكر : كانت زاهدةً فصيحةً .

* وقد وصفها النّوويّ بقوله : كانت زاهدةً فقيهةً .

وقال أيضاً : كانت فقيهةً حكيمةً .

* وأورد ابنُ كثير ترجمتها ووصفها بقولهِ : تابعية ، عابدة ، عالمة ، فقيهة .

* ونعتها الذّهبيُّ بقوله : السّيّدة العالمةُ الفقيهةُ ، واشتهرت بالعلم والعمل والزّهد .

* وأمّا ابن حبّان فقد ذكرها في الثّقات وقال : كانت من العابدات .

---

(١) تاريخ دمشق (ص ١٠٨) .

* وقد أجمع العلماء والمؤرخون على وصفها بالفقه ، وهذه الصِّفة من أعظم الصِّفات التي تجتمع في الإنسان ، إذ إنّه مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقّهه في الدِّين .

* * *

مِنْ أَخْبَارِهَا مَعَ عَبْدِ المَلِكِ :

* كانت أمُّ الدَّرداء ـ رحمها الله تعالى ـ معظَّمةً عند بني أمية ، تحظى باحترام خلفائهم ، وقد رأينا كيف كان سيدنا معاوية يجلّها ويحترمها .

* أمّا عبد الملك بن مروان ، فكان يجلسُ في حلقتها مع المتفقّهة يشتغلُ عليها بالعلم وهو خليفة[1] ؛ وكان كثيراً ما يجلسُ في مؤخر المسجد بدمشق يستمعُ إلى أمِّ الدَّرداء ـ رحمها الله ـ .

* ولأمّ الدرداء أخبار كثيرة مع عبد الملك بن مروان ، وفي بعض هذه الأخبار ما يدلُّ على فراستها وذكائها ؛ فقد قالت لعبد الملك يوماً : ما زلت أتخيّلُ فيك هذا الأمر مذ رأيتك .

قال : وكيف ذاك ؟ ! .

قالت : ما رأيتُ أحسن منك محدثاً ، ولا أعلم منك مستمعاً .

وعبد الملك بن مروان خليفة الدّنيا في وقته ، كان يستفيد من حديثها ، وإذا ما بدرت منه هفوة من الهفوات كانت أمُّ الدَّرداء النّاسكة

(١) البداية والنهاية (٩/٥٠) .

العالمة التقية تصحح له ذلك بالحجة والحكمة والموعظة الحسنة .

* ورد عن زيد بن أسلمَ أنَّ عبد الملك بن مروان بعث إلى أمِّ الدَّرداء فكانت عنده ، فلما كان ذات ليلة قام عبد الملك من الليل ، فدعا خادمه ، فكأنَّه أبطأ عنه ، فلعنه ، فلما أصبح قالت له أمُّ الدَّرداء : قد سمعتُك الليلة لعنت خادمك ! .

قال : إنَّه أبطأ عني .

قالت : سمعتُ أبا الدَّرداء يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة »[1] .

* وكانت لأمِّ الدَّرداء ـ بعد وفاة زوجها ـ عادة منتظمة في حياتها ، إذ كانت تقيم ستة أشهر في بيت المقدس تُعلم وتتعبد في المسجد الأقصى الذي بارك الله عزَّ وجلَّ فيه وحوله ، وتقيم ستة أشهر أخرى في دمشق الشام موطنها الأصلي .

* وهي خلال إقامتها في بيت المقدس تتمتع باحترام عبد الملك لها ، فلقد رُؤي عبد الملك جالساً في صخرة بيت المقدس ، وأمّ الدَّرداء معه جالسة ، حتى إذا نودي للمغرب قام عبد الملك ، وقامت أمُّ الدرداء تتوكأ على عبد الملك حتى يدخل بها المسجد ، فإذا دخلت جلست مع النِّساء ، ومضى عبد الملك إلى المقام فصلّى بالنَّاس[2] .

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٣٥) ، والحديث في جامع الأصول لابن الأثير (٧٥٧/١٠) .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٤٣٥) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٩/٤) ، والأعلام (٧٧/٨) .

* ومن الأخبار التي تتصل بهذا ما روته بنفسها أنَّ رجلاً أتاها فقال : إنَّ رجلاً قد نال منك عند الملك .

فقالت : إن نُؤْبَن ـ نُتهم ونُعاب ـ بما ليس فينا ، فطالما زُكِّينا بما ليس فينا[1] .

* * *

وَدَاعاً أُمَّ الدَّرْدَاء :

* في سنةِ إحدى وثمانين من الهجرة الشَّريفة ، أدَّت أمّ الدَّرداء فريضة الحجِّ ، ولما فرغت من حجِّها عادت إلى دمشق .

* وفي سنة (٨٢ هـ)[2] وافى أم الدرداء الأجل المحتوم ، ولقيتْ ربَّها بموطنها في الشَّام .

* وفي مقبرة باب الصَّغير بدمشق يثوي جثمان أمّ الدَّرداء إلى جانب زوجها أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ ، إذ أنَّ قبره معروف بباب الصَّغير .

قال النَّوويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ : وقبرُ أبي الدَّرداء وقبر زوجته أمّ الدَّرداء الصُّغرى بباب الصَّغير من دمشق مشهوران[3] .

* ولعله من المفيد أنْ نذكر هنا مَنْ دُفن بباب الصَّغير بدمشق من

---

(١) تهذيب التهذيب (٤٦٦/١٢) .
(٢) البداية والنهاية (٥٠/٩) .
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢٢٨/٢) .

النِّساء الصَّحابيات ؛ فقد قال الحافظ ابن طولون ـ وهو محمَّد بن علي الدمشقي الصَّالحيّ المؤرخ العالم الفقيه ـ : وقِبْليَّ باب الصَّغير قبر بلال بن حمامة ـ رضي الله عنه ـ ، وثلاث من أزواج النَّبي ﷺ وقبر فَضَّة جارية السَّيدة فاطمة الزَّهراء ، وقبر أمّ الدَّرداء ، هؤلاء كلهن في تربة واحدة .

* رحم الله أمّ الدَّرداء ، وألحقها بالصَّالحين .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

أم مسلم الخولانية

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

www.dawahmemo.com

(١٠)

أمّ مُسلم الخولانيّة

* تابعية ، عابدة ، زاهدة ، تجيد الغزل ، مطيعة لزوجها .

أُمُّ مُسْلِم الخَوْلَانيّة

يا أُمَّ مُسْلِم :

* يا أمّ مسلم سوي رَحْلَكِ ، فإنّه ليس على جسْرِ جهنم مَعْبر .

بمثل هذا كان أبو مسلم الخولاني يخاطبُ زوجه أمّ مسلم كلّما سنحت له فرصة لذلك .

* وعلى مثل هذا المستوى من حياة العبادة والزّهد ، وطلب مرضاة الله عزّ وجلّ ؛ كانت بدايةُ أم مسلم الخولانية مع زوجها ، فمن أشرقتْ بدايته ، أشرقتْ نهايته ، وسيرة أمّ مسلم إشراقٌ في إشراق .

* وأمُّ مسلم الخولانية[1] ـ رحمها الله ـ امرأةٌ من كبار نساء التّابعين ، وأمّ مسلم نفسها تابعيةٌ جليلةُ القَدْر ، رفيعة الشّأن ، على جانب عظيم من العلم والمعرفة ، والزّهد والتّقى .

* وزوجها أبو مسلم الخولاني الدّاراني ، سيّد التّابعين ، وزاهد العصر ـ كما قال الذّهبي ـ واسمه عبد الله بن ثوب[2] ، أسلم في عهد

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٥٥٠) .

(٢) هو أحد الزُّهادِ الثّمانية المشهورين بالزّهد وهم : الرّبيع بن خُثيم ، عامر بن عبد الله التّميمي ، أُويس بن عامر القرني ، هرم بن حيان ، مسروق بن الأجدع ، الأسود بن يزيد ، الحسن البصريّ ، وأبو مسلم الخولاني .

النبي ﷺ ولم يَلْقَه ، ودخل المدينة المنورة في خلافة سيدنا أبي بكر الصِّدّيق ـ رضوان الله عليه ـ .

* وحدَّثَ أبو مسلم ـ رحمه الله ـ عن عمر ، ومعاذ بن جبل ، وأبي ذرّ الغِفَاري ، وأبي عبيدة ، وعبادة بن الصامت ـ رضي الله تعالى عنهم ـ .

* وروى عنه أكابر تابعي عصره ، وكان حكيم الأمّة ، وقد آتاه الله عزّ وجلّ من لدنه فضلاً وعلماً ، وكان من كبار أولياء الله المتقين ، وقدمَ الشّام فسَكَن داريّا[1] .

* وأمّ مسلم الخولانية ـ رحمها الله ـ لا تُعرف إلا بهذه الكنية ، وقد استمدت شهرتها من زوجها أبي مسلم الخولاني ـ رحمه الله ـ ، بالإضافة إلى ما كانت عليه من العبادة والصّلاح ، فقد عمّرتْ أوقاتها بأنواعِ الطّاعة ، ولا زمتْ ذِكْرَ الله قياماً وقعوداً وبالعشيّ والإبكار ، فاقتعدت منزلةً عالية بين النّساء التّابعيات ، وكُتِبَ لها الذِّكْرُ الحسنُ في هذه الدُّنيا ، وكانت قدوة حسنة لمن أراد الاقتداء .

* * *

(١) « داريا » : القرية المعروفة جنب دمشق على دون ثلاثة أميال منها ـ وهي اليوم داخل دمشق ـ وكان فضلاء السَّلف يسكنونها ، وممن سكنها من الصَّحابة سيدنا بلال مؤذن رسول الله ﷺ . وفي داريا قبران مشهوران لسيدين جليلين وهما : أبو مسلم الخولاني ، وأبو سليمان الداراني ـ رضي الله عنهما ـ (تهذيب الأسماء واللغات : ٣/١٠٨) .

مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذا ؟ :

* لم تكن أمّ مسلم الخولانية ـ رحمها الله ـ من النِّساء اللواتي ينقطعن انقطاعاً كاملاً إلى واجباتهن الدِّينية ، وتترك واجباتها الدّنيويّة ، ولكنّها كانت امرأة صَنّاعاً ، تعمل بيديها ـ والعمل عبادة ـ فقد كانت تجيد الغَزْلَ وما يلحق به من أمور ، وبهذا كانت من العابدات المجتهدات في العبادة والعمل من كسب ذاتِ اليد .

* وكانت أمُّ مسلم ـ رحمها الله ـ تبيعُ ما تغزله وتعطيه زوجها لشراء ما يلزمهم ، وذات مرّةٍ أعطَتْه درهماً ليشتريَ دقيقاً ، فتصدّقَ به ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرمَهُ لنقاءِ سريرته ، فكيف كان ذلك ؟ .

حدّثَ عطاء الخراسانيّ ـ رحمه الله ـ فقال :

قالتِ امرأةُ أبي مسلم الخولاني لزوجها : يا أبا مسلم ، ليس لنا دقيقٌ .

فقال ـ رحمه الله ـ : هل عندك شيء ؟ .

قالت : درهمٌ بِعْنا به غَزْلاً .

قال : ابغِنيه ـ أعطِنيه ـ وهاتي الجراب .

فدخل السُّوقَ ، فوقفَ على رجل يبيعُ الطَّعام ، فأتاه سائلٌ وقال : يا أبا مسلم تصدّقْ عليَّ ، وألحَّ السَّائلُ في طلبه ، فأعطاه الدّرهم ـ الوحيد ـ ثم عمد إلى الجراب فملأه نُشَارة الخشب مع تُراب ، وأقبل إلى منزلِهِ ، فوضع الجراب خلْفَ الباب ، ومضى إلى شأنه ، ففتحتْهُ فإذا به دقيقٌ حُوَّارى ـ أبيض ـ فعجنت وخبزت ، فلما جاء أبو مسلم

ليلاً ، وضعت بين يديه خواناً وأرغفةً فقال : من أين لكِ هذا يا أمّ مسلم ؟! . قالت له : يا أبا مسلم من الدّقيق الذي جئتَ به نهاراً . فجعلَ يأكلُ ويبكي .

* * *

دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ :

* كانت أمّ مسلم ـ رحمها الله ـ من أبرّ الزّوجات لزوجها ، ومن أفضلهن على القيام بالخدمةِ ، وأحسنهنّ صحبة ، ولكنّ امرأةً من جيرانها عكّرتْ ذلك الصّفاء الذي كان يصلُ بينهما ؛ وأفسدت أمّ مسلم على زوجها ، وألّبتها عليه ، فدعا أبو مسلم على تلك المرأة فعميتْ ، فأتته فاعترفت وتابت ، فردّ اللهُ إليها بصرها .

* وقد أورد أبو نعيم الأصبهانيّ ـ رحمه الله ـ تفاصيل هذه القصة فقال : كان أبو مسلم الخولانيّ إذا انصرف إلى منزله من المسجدِ كبّرَ على بابِ منزله ، فتكبّر امرأته ، فإذا كان في صَحْنِ داره كبّر فتجيبه امرأته ، وإذا بلغ بابَ بيته كبّر فتجيبه امرأته .

فانصرف ذات ليلةٍ فكبر عند باب داره فلم يجبْهُ أحدٌ ، فلما كان في الصّحنِ كبّر فلم يجبه أحدٌ ، فلما كان عند باب بيته كبّر فلم يجبه أحد .

وكان إذا دخلَ بيته أخذتِ امرأته رداءه ونعليه ثم أتته بطعامه ، فدخل البيتَ ، فإذا البيتُ ليس فيه سراجٌ ، وإذا امرأته جالسة في البيت منكسة تنكتُ بعودٍ معها .

فقال لها : ما لَكِ ؟ .

قالت : أنتَ لكَ منزلة عند معاويةَ ـ بنِ أبي سفيان ـ وليس لنا خادم ، فلو سألته فأخْدَمَنا وأعطاكَ ، وأدركَ أبو مسلم أنَّ في الأمْرِ شيئاً ، فتوجَّه ببصرهِ إلى السَّماء وقال : اللهم مَنْ أفسد عليَّ امرأتي فاعْمِ بصرها .

قال : ـ وقد جاءتها امرأةٌ قبل ذلك فقالت لها : زوجُكِ له منزلة عند معاوية ، فلو قلتِ له يسأل معاوية يُخدمه ويعطيه عِشْتُم ـ .

فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها ليلاً ، إذ أنكرت بصرها فجأة ، فقالت : ما لسراجكم هل طُفيء ؟ .

قالوا : لا ، السِّراجُ على حالِهِ .

عندئذ عرفتْ ذنبها وفضوها مع أمّ مسلم ، فأقبلتْ إلى أبي مسلم تبكي ، وتسأله أنْ يدعوَ الله عزَّ وجلَّ لها أنْ يردَّ عليها بصرها ، فرقَّ لها ورحمَ حالها ، فتوجَّه إلى الله عزَّ وجلَّ بقلبه ، ودعا له فَرُدَّ عليها بصرها ، وعادت أمّ مسلم ـ رحمها الله ـ إلى حياة الصَّفاء مع زوجها أبي مسلم ـ رحمه الله ـ[1] .

* * *

مِنْ أخْبارِها مَعَ زَوْجِها :

* كان أبو مسلم الخولاني ـ رحمه الله تعالى ـ موصولَ القلبِ بالله

(١) عن الحلية (٢/١٢٩ و ١٣٠) بتصرف يسير جداً ، وانظر صفة الصفوة (٤/١٧٨ و ١٧٩) .

عزَّ وجلَّ على أساسٍ صحيح ، وكان يرشد زوجه أمّ مسلم إلى هذا ، ويعلمها أنّه ما توقّف مَطْلَبٌ من مطالبِ الدنيا يطلبه الإنسان من ربِّهِ إلا وفاز بقضاءِ ذلك فالله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ ومَنْ يتّق الله يجعلْ له مَخْرَجاً * ويرزقْه من حيث لا يحتسبُ ومَن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾ [الطّلاق : ٢ ـ ٣] ، وأنَّ من علاماتِ الظَّفر والنّجاح الرّجوع إلى الله عزَّ وجلَّ في كلِّ شيءٍ ، لا إلى الإنسان ، فالإنسانُ لا يملك شيئاً .

* ولعلَّ أمَّ مسلم لم تكن تدرك كُنْهَ هذهِ الأمور إلا بعد حينٍ من الزَّمن ، عندئذ تبيّنَ لها حقيقة ما كان يعلّمُها زوجها .

* وهذا ما حَدَثَ فِعْلاً ، حيث طلبتْ منه حوائج وأمرته أنْ يأتيَ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ، ولكنّه أتى المسجدَ واستعان باللهِ عزَّ وجلَّ على قضاء حوائجه ، فأكرمه اللهُ ونعّمه ، ومن ثمّ شكر أبو مسلم ربَّه على ما أولاه وأعطاه .

* وفي تاريخ دمشق أورد ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ قصّة أبي مسلم وأم مسلم ، وإرشاد أبي مسلم لزوجه فقال : قالت أم مسلم لأبي مسلم :

يا أبا مسلم ، قد حضر الشّتاءُ ، وليس لنا كسوة ، ولا طعام ولا إدام ، ولا حذاء ، ولا حطب .

فقال لها : ماذا تريدين يا أمّ مسلم ؟ .

قالت : تأتي معاوية فهو عارفٌ بك ، وتخبره بحاجتك وجهدنا .

قال : ويحكِ ، إني لأستحي أنْ أطلبَ إلى غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ . وأخذتْ

عليه ، فلما أكثرتْ قال : ويحكِ ! جهِّزيني .

ثم عمد إلى المسجد ، ومكثَ يومه ، فلمّا صلى النّاس العشاء وخلا له المسجد ، جثا على ركبتيه ثم قال :

اللهم أنت تعرف حالي فيما بيني وبينك ، وقد سمعتَ مقالة أمّ مسلم وقد بعثتني إلى معاويةَ ، وخزائن الدّنيا كلها بيدك ، ومعاوية خلقٌ من خلقك ، وإنما أسألك من خيرك الكثير اليسير ـ وعدّدَ حاجاته ـ .

ثم قال : وإنَّ خزائنك لا تنفدُ ، وخيرُكَ لا ينقص ، وأنتَ بي عالم ، قد تعلَم أنّك أحبّ إليّ من سواك ، فإنْ تعطني حمدتك عليه كثيراً ، وإن تمنعنيه فلك الحمد كثيراً .

* وكان رجلٌ من آل معاويةَ في المسجد يسمع مقالة أبي مسلم ، فخرج حتى دخل على معاوية ، وأخبره بما سمع .

فقال معاوية : ويحك ، أتدري مَنْ هذا ؟ هذا أبو مسلم ، أليس قد أحصيتَ ما قال ؟ .

قال : بلى يا أمير المؤمنين .

قال : فأضعفوا له كلّ ما سأل وعجلوا به السّاعة إلى منزله ، ولا يصبحن إلا وهذا الشّيء في منزله من كلّ شيء اثنين .

فحمل كلّ ما قال ، فلمّا قدمت هذه الأشياء إلى أمّ مسلم ـ رحمها الله ـ ، أقبلتْ تحسنُ الثّناء على معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ وتقول : لم أزلْ أعاتب الشّيخ في إتيانه فيأبى عليّ .

فلما صلّى أبو مسلم الغداة ـ الصّبح ـ انصرف وهو واثق بربّه عزّ وجلّ ، فلما أتى البيت أصابه مملوءاً سواداً .

فقالت له أمّ مسلم : يا أبا مسلم ، ألا ترى ما أهدى إليك أمير المؤمنين ؟ .

قال : ويح البُعداء ! لقد كَفَرْتِ النّعمة ولم تشكري الرّزّاق . والله ما أتيتُ لمعاوية داراً ، ولا كلّمتُ له حاجباً ، ولا رفعتُ إليه حاجة ، وما هذا إلا قسْم من الله تعالى أهداه إلينا ، فللّهِ الحمد كثيراً كثيراً[1] .

* عند ذلك أدركت أم مسلم حِرْصَ زوجها على تعليمها حقيقة التّوكل على الله سبحانه ، ومنذ ذلك الحين لم تعدْ تطلب منه شيئاً ، وحرصت على الالتزام بالنّهج الذي يسلكه زوجها أبو مسلم ـ رحمه الله ـ .

* * *

أيّ الرّجُلَيْنِ أفْضَلُ ؟ :

* ذكر صاحب كتاب « تاريخ داريا » أنّ أمّ مسلم لما مات[2] عنها أبو مسلم ـ رحمه الله ـ تزوّجت بعده عمرو بن عبد الحولاني ، وكان عمرو زاهداً عابداً ورعاً تقياً .

وسئلت أمّ مسلم ، فقيل لها : أيّ الرجلين أفضل ؟ قالت : أما أبو

---

(١) عن تاريخ دمشق (ص ٥٥٠ و ٥٥١) مختصراً .

(٢) توفي أبو مسلم في سنة (٦٢ هـ) ـ رحمه الله ـ .

مسلم ، فإنّه لم يكن يطلب من الله شيئاً إلا أعطاه إياه ؛ وأمّا عمرو بن عبد ، فإنه كان يُنار ـ يُضاء ـ عليه في محرابه حتى إني كنتُ أخدم على ضَوْءِ نوره من غير مصباح .

* هذه هي أمُّ مسلم الخولانية ـ رحمها الله ـ ، مِنْ خيرة النّساء التّابعيات اللاتي يُقتدى بمثلها ؛ فرحِمَ الله أمَّ مسلم ، ونضّر قبرها ، فقد كانت سيرتُها إمتاعاً للأسماع .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

أم سنان بنت خيثمة

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

www.dawahmemo.com

(١٢)

أم سنان بنت خيثمة

* فصيحة ، شاعرة ، لها قصة مع مروان بن الحكم ، ولقاء مع معاوية بن أبي سفيان ، قوّالة بالحق ، تجهر بالرأي .

أُمُّ سِنَان بنْتُ خَيْثَمَةَ

نُصَراءُ عَلِيّ مِنَ النِّسَاءِ :

* كان جندُ عليّ بن أبي طالب عليه سحائب الرّضوان ، أحفل الأجناد بذوات القول الفصل ، والرّأي الجزْل من النّساء ، وكان لهن في « صِفّين » مقامات ومواقف محمودة ، صكّتْ أسماع المعاندين ، وروّعت نفوسهم ! .

* ومن هؤلاء النّسوة النّصراء ، يكارة الهلالية ، وسودة بنت عمارة[1] ، وأمُّ الخير بنت الحريش البارقيّة[2] ، والزّرقاء بنت عدي ، وعكرشة بنت الأطش ، وضيفة هذه الصّفحات أمّ سِنان بنت خَيثمةَ بن حَرشةَ المذحجيّة[3] ؛ وغيرهن كثيرات من نظائرهن وأشباههن ممن أوتين جوامعَ الكلم ، وجمعْنَ أشتات الحكم ، بين ازدحام الصّفوف ، وتحت بريق السّيوف ، فلم يكن يخيفهن كثرة الأبطال ، ولا أسِنّة الرّماح ، أو ما شابه ذلك في ميادين القتال .

* ولما تبدلتِ الأيامُ ، وتغيّرتِ الأحوالُ ، واستقرّ الأمرُ لمعاوية

---

(١) اقرأ سيرتها في هذا الكتاب .

(٢) اقرأ سيرتها في هذا الكتاب ففيها مواقف ومآثر محمودة .

(٣) تاريخ دمشق (ص ٥٣٠) ، والعقد الفريد (٢/١٠٨) .

ـ رضي الله عنه ـ ، كان يستدعي بعض هؤلاء النّسوة الفصيحات ، ويستمع إلى بلاغتهن ، ويعجب لجرأتهن وصراحتهن أمامه ، خصوصاً عندما يُغلِظنَ له بالقول ـ أحياناً ـ فكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ أكبر همّةً ، وأسمى نفساً من أنْ يقدمَ على إيذاءِ أي منهن أو قتلها مهما أغلظت له بالقول ، أو عرّضتْ به ، بل كان ـ رضي الله عنه ـ يبادرهن بالصِّلةِ ، ومن ثم يرجعهن من حيث قدمن وقد نالتهن جائزته .

* ومن بين هؤلاء النّسوة الخالدات : أمّ سنان بنت خيثمة التي حفظتْ ذاكرة معاوية قطعة من شِعْرِها يوم صِفّين ، كما حفظت ذاكرة رجلٍ شاميّ قطعة أخرى من شعرها ، أمّا ذاكرةُ التّاريخ فقد وعت كلَّ ما قاله هؤلاء جميعاً .

* * *

مِنَ المَدينةِ إلى الشّامِ :

* بعد أنِ انتهت موقعةُ صفّين ، عادت أمُّ سِنان بنت خيثمة إلى المدينةِ المنوّرة ، وحطّتْ رحالها هنالك ، واستقرّتْ فيها ، وعندما ولِيَ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ الخلافة ، ولّى مروانُ بن الحكم المدينة المنورة مرتين من سنةِ (٤٢ ـ ٤٩ هـ) ، ثم تولاها مرة أخرى سنة (٥٦ و ٥٧ هـ) .

* وكان لمروانَ بن الحكم مع أمّ سنان قصة ؛ أسمعته فيها من غليظ القول وخشن الكلام شيئاً غير يسير ، ثمّ توجهت إلى دمشق تشكوه إلى أمير المؤمنين معاوية لأنّه حبس حفيدها ، فألفتْ لدى معاوية أذناً

صاغية ، وقضى حاجتها ، ولكنَّ محاورة جرت بينهما كشفت لنا عن فصاحتها وبلاغتها وشاعريتها .. فلنعش أحداث القصة من بدايتها .

فقد حبس مروان بن الحكم[1] ـ وهو والي المدينة ـ غلاماً من بني ليث في جناية جناها بالمدينة المنورة ، فأتته جدّةُ الغلام أمّ أبيه ، وهي أمّ سِنان بنت خيثمة بن حرشة المذحجيّة ، فكلّمته في شأنِ الغُلام ، وطلبت أنْ يصفحَ عنه أو يخففَ عنه الحبس .

ولكن مراونَ بن الحكم أغلظ لها في القولِ وانتهرها وزجرها ، فأغلظتْ له هي الأخرى ، ثم فكّرت في الذّهاب إلى مقر الخلافة فهناك معاوية ، وهو الذي يستطيع أنْ يرفعَ عنها الظّلمَ فتجهزتْ وشدّتْ رحالها ، وتوجهت نحو دمشق ونفسها مملوءة غيظاً على ابن الحكم الذي لم يعرف مكانتها وقدْرها ، ومن ثم كبّدها عناء السّفر ومشقته .

* * *

أمُّ سِنَان في مَجْلسِ مُعَاوِيةَ :

• لما قدمت أمّ سنان دمشقَ ، استأذنتْ على معاوية فأذنَ لها ،

---

(١) مروانُ بنُ الحكم بن أبي العاص ، القرشيّ الأمويّ ، الملك أبو عبد الملك ، مولده بمكة سنة (٢ هـ) وإليه يُنسب بنو مروان ، جعله عثمان ـ رضي الله عنه ـ في خاصته واتخذه كاتباً له ، وقاتل مروان في وقعة الجمل ، وشهد صفين مع معاوية ، ثم أمّنه علي ـ رضي الله عنه ـ فأتاه فبايعه ، وأقام بالمدينة ، إلى أنْ ولي معاوية الخلافة فولاّه المدينة ، وفي سنة (٦٤ هـ) أصبح الخليفة بدلَ معاوية بن يزيد ، وهو أول مَنْ مَلَكَ من بني الحكم بن أبي العاص . وتوفي بالشام في سنة (٦٥ هـ) وأخباره كثيرة ومشهورة في الكتب (سير أعلام النبلاء : ٣/٤٧٦ ـ ٤٧٩) ، و (الأعلام : ٧/٢٠٧) .

فانتسبتْ له فعرفها ، وأمرها بالجلوس ، فلمّا جلست قال لها : مرحباً يا ابنة خيثمة ، ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تبغضين قومي ، وتحضّين عليّ عدوي ؟ .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إنّ لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسفهون بعد حلم ، ولا يعقبون بعد عفو ، وإنّ أولى النّاس باتباع سنن آبائه لأنتَ .

قال معاوية ـ رضي الله عنه ـ : صدقتِ يا أمّ سنان ، نحنُ كذلك . ثم سادت فترة صَمْتٍ ، قطعها معاوية بسؤالٍ لأمّ سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه ، فقال لها : كيف قولك :

غَـرِبَ الرّقـادُ فمقـلتي مـا ترقـدُ
والليـلُ يُصـدر بـالهمـومِ ويـوردُ
يـا آل مِذْحج لا مُقـامَ فشـمّروا
إنّ العـدوّ لآل أحمـدَ يَقصـدُ
هـذا عـليٌّ كالهـلال تخفُّـهُ
وسْـطَ السّماء من الكواكبِ أسعدُ
مـا زال مُذْ شهدَ الحروبَ مظفّراً
والنّصرُ فـوق لوائـه مـا يُفقـد

وكانت أمُّ سنان ـ رحمها الله ـ تصغي لما ينشده معاوية من شعرها ، ولما انتهى قالت له : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وإنّا لنطمع أنْ تكونَ لنا خلفاً بعده ، فمثلك جدير بذلك .

وقبل أن يتكلم معاوية بكلمة ، قال رجلٌ من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ، وأنا أحفظُ مِنْ شِعْرِها خلاف ما تقوله لك الآن ، فهي القائلة :

إما هلكتَ أبا الحُسين فلم تزلْ
بالحقّ تُعرفُ هادياً مهديا
فاذهبْ عليك صلاة ربّك ما دعتْ
فوق الغُصون حمامة قُمريا
فاليوم لا حلفٌ يؤمّل بعده
هيهات نمدحُ بعده إنسيا

عندئذ قالت أمُّ سنان وعلائم الحزم والصِّدق ترتسم على وجهها وهي تعرّضُ بجلسائه : يا أمير المؤمنين ، لسانٌ نطقَ ، وقولٌ صَدَق ، ولئن تحقّقَ فيك ما ظننّا فحظُّك الأوفر ، والله ما ورّثك الشَّناءة ـ البغض ـ في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ـ وأشارت إلى بعض جلسائه ـ فادحضْ مقالتهم ، وأبعدْ منزلتهم ، فإنّك إنْ فعلتَ ذلك ازددتَ من اللهِ عزَّ وجلَّ قرباً ، ومنَ المسلمين حُبّاً .

وتعجّبَ معاوية ـ رضي الله عنه ـ مما تقول ، فقطعَ عليها مقالتها قائلاً : وإنّك لتقولين ذلك يا أمّ سِنان ؟ ! .

قالت : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، والله ما مثلك مُدِحَ بباطل ، ولا اعتُذر إليه بكذب ، وإنّك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا ، كان والله عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ أحبَّ إلينا منك إذ كان حيّاً ، وأنتَ أحبّ إلينا من غيرك إذ أنت باقٍ .

فسألها معاوية : وممن أنا أحبّ إليكم ما دمتُ باقياً ؟ .

فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنتَ أحبّ إلينا من مروانَ بنِ الحكم ، وسعيد بنِ العاص .

قال : وبم استحققتُ بذلك عليهما ؟ .

قالت : بحُسْنِ حلمك ، وكرم عفوك .

فقال معاوية : وإنّهما ليطمعان فيّ ذلك .

قالت : نعم ، فهما والله لك من الرّأي ، على ما كنتَ عليه لعثمانَ بنِ عفان ـ رضي الله عنه ـ[1] .

قال : واللهِ لقد قاربتِ .

وانتهى الحوار هنا ، ولم يعد معاوية ـ رضي الله عنه ـ يسألها عن أي شيء .

* * *

إكْرَامُهَا وَقَضَاءُ حَاجَتِهَا :

* ساد صمتٌ في مجلس معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وسكتت أمُّ سنان عن الكلام بعد أن وضعته في مواضعه ، ووضعت النقاط على الحروف ، وكان سيدنا معاوية راضياً كلّ الرّضى عما تقول أمّ سنان ، ولكنّ وراء وفادتها عليه أمْرٌ ما ولم يطّلِعْ عليه بَعْدُ ، فتوجّه إليها قائلاً :

(١) تريد أن مروان وسعيد يأملان الخلافة بعد معاوية ، كما كان معاوية يأملها بعد عثمان .

ما حاجتك الآن يا أمّ سنان ؟ .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إنَّ واليك مروان بن الحكم تَبَنَّكَ بالمدينة ـ أقام بالمدينة ـ تبنُّك مَنْ لا يريد البَراح منها ، فلا يحكم بعدلٍ ، ولا يقضي بسُنَّةٍ ، وهو يتتبع عثرات المسلمين ويكشفُ عورات المؤمنين ، وقد حبس ابن ابني فأتيته ، فقال كيت وكيت ، فلم أسكت له وألقمته أخْشَنَ من الحجر ، وألعقته أمرّ من الصَّاب[1] ، ولكنّي يا أمير المؤمنين رجعتُ إلى نفسي باللائمة وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى مَنْ هو أولى بالعفو منه ، فأتيتك لتكون في أمري ناظراً ، وعليه معيناً وناصراً .

قال معاوية : صدقتِ يا هذه ، فلا أسألك عن ذنبِ حفيدك ، ولا أسألك القيام بحجته ، والدّفاع عنه .

ثم قال لكتابه :

اكتبوا لأمّ سنان بإطلاقِهِ وإخراجه من سجنه . فشكرت أمّ سنان معاوية على معروفهِ وقالت له : يا أمير المؤمنين ، وأنّى لي بالرّجعة إلى المدينة المنوّرة ، وقد نفذ زادي ، وكلّت ـ ضعفت ـ راحلتي ؟ ! .

عندئذ أمر لها معاوية براحلةٍ موطأة ، ووصلها بخمسة آلاف درهم ، وردّها إلى المدينة المنوّرة وقد قُضيت حاجتها ، وكان لسانها يلهجُ بالدّعاء لمعاوية[2] .

---

(١) « الصَّاب » : شجر بتهامة ، إذا قُطع منه عود خرج منه لبن إذا أصاب العين أحرقها . تريد أنها : أسكتته بحجتها وشدة كلامها .

(٢) عن تاريخ دمشق (ص ٥٣١ و ٥٣٢) ، وشاعرات العرب (ص ١٧٦ و ١٧٧) بتصرف يسير .

* هذه أمُّ سنان المذحجيّة ، إحدى نساء عصر التابعين ، وممن فُطرت نفسها على الصَّفاء والصَّراحة ، وأوتيت شطراً من البلاغة والحكمة ما جعلها في سجل ناصع يحكي خلودها وخلود أمثالها .

* رحم الله أمَّ سنان بنت خيثمة ، ونضَّر قبرها ، وغفر لها ، فقد كانت بحقٍّ امرأة قدوة في الصِّدق والوفاء .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

عائشة بنت سعد

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٥)

عائشة بنت سَعد

• قال العجلي :

عائشة بنت سعد : مدنية ، تابعية ، ثقة .

• أبوها سعد بن أبي وقاص ، راوية للحديث النبوي الشريف ، أدركت ستاً من أزواج النبي ﷺ ، محبة للعلم .

عَائِشَةُ بِنْتُ سَعْدٍ

كَلِمَاتٌ فِي البِدَايَةِ :

* ما من شك في أنَّ للنساء أثراً مشكوراً في نَشْر حديث رسول الله ﷺ ، فلم تكنْ مجالسه ﷺ قاصرةً على الرِّجال ، بل كان كثير من النِّسوة يحضرن فيستمعن إلى حديثه الشَّريف ، وخصوصاً في المناسبات العامة ، كصلاةِ العيد إذ كُنَّ يخرجن جميعاً إلى المصلَّى لاستماع الموعظة النَّبويَّة .

* إلا أنَّ المجالسَ النَّبويَّة كانت الغلبة فيها للرِّجال دون النِّساء ، لذلك جاء وفدُ النِّساء إلى رسول الله ﷺ ، وطلبن إليه أنْ يجعلَ لهنَّ يوماً يعلِّمهنَّ فيه ، فكان يجيبهنَّ إلى ذلك .

* وقد كان لزوجات النَّبي الطَّاهرات ـ رضي الله عنهن ـ فَضْل كبير في تبليغ أحكام الدِّين ، ونَشْر السُّنَن بين نساء المؤمنين لا سيما ما كان من أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي كانت على مقدار عظيم من الذَّكاء والحفْظِ والفهم والمعرفة ، ولا ريب في أنَّ نساء النَّبي ﷺ كنَّ جميعاً قسيمات عائشة في إذاعة العلم ، وإفاضة الدِّين على المسلمين ، فقد أمرهن الله عزَّ وجلَّ بالاستقرار في بيوتهن ومدارسة القرآن الكريم ، والسُّنَّةِ الغرَّاء في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وقرنَ في بيوتكن ولا تبرجن

تبرجَ الجاهلية الأولى ﴾ إلى أن قال : ﴿ واذكرن ما يُتلى في بيوتكن من آيات اللهِ والحكمة ... ﴾ [الأحزاب : ٣٣ و ٣٤] .

* لذا كان لأمّهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ أثرٌ فعّال في نَشْرِ السُّنَّة ، ولولاهن لضاعت أحاديث وأحكام ما كنّا لنطّلع عليها أو تصلنا من غيرهن لا سيما الأفعال التي تقع بين النّبي ﷺ وأزواجه ، مما لا يمكن لأحد الاطلاع عليها ، والوقوف على أحكامها .

* وكان لأمّهات المؤمنين[1] ـ رضي الله عنهن ـ طالبات نجيبات من النساء اللواتي روين عنهن ، ومن هؤلاء النّسوة ؛ امرأة جليلة القَدْر ، امتازت بالصِّدق في العلم ، والأمانة في الرّواية ، تلكم هي عائشة بنت سعد بن أبي وقاص الزّهرية المدنيّة[2] . إحدى النّساء التّابعيات المتفوّقات عِلْماً وفَضْلاً ، وحفظاً ورواية .

* * *

(١) لم تكن أمّهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ وحدهن في هذا المجال في عصرهن وما تلاه ، بل كن كثيرات ، وقد عقد محمّد بن سعد ـ رحمه الله ـ جزءاً خاصاً من كتابه « الطّبقات الكبرى » لروايات الحديث من النّساء أتى فيه على أكثر من سبعمئة امرأة روين عن النبي ﷺ أو عن الثقات من أصحابه ، وروى عنهن أعلام الدّين وأئمة المسلمين وأفاضلهم ... واستمرت رواية الحديث للنّساء إلى عَصْرٍ متأخر ، ذلكم أنّ الحافظ المشهور والمؤرخ الكبير ، الإمام ابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ) وهو أوثق رواة الحديث ، وأصدقهم حديثاً ، لقب بحافظ الأمة ، كان له من شيوخه وأساتذته بعض وثمانون من النّساء .. وأمّا شيوخه من الرجال فيزيدون عن المئات .

(٢) الطبقات (٨/٤٦٧) ، وتقريب التهذيب (٢/٦٠٦) ، وشذرات الذهب (٢/٨٢) .

النَّشأةُ العِلْميَّةُ :

* في أواخر[1] خلافة سيدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ، ولدت عائشة ابنة سعد بن أبي وقاص في المدينة المنوّرة ، وكانت المدينة إذ ذاك موئل الصَّحابة والعلماء ، ومنبع الحديث والمحدّثين ، وفي مقدمتهم عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ .

* ونشأت عائشة بنت سعد على حب العلم والرّواية منذ نعومة أظفارها ، وصُنعت على عيني والدها سعد ، أحد العشرة المبشرين بالجنَّةِ ، وأحد السَّابقين الأولين إلى ساحة الإسلام ، وأحَدُ مَنْ شهد بدراً والحُديبية ، وأحد السّتة أهل الشُّورى ، وفضائله كثيرة شهيرة ، وكانت ابنته عائشة ـ رحمها الله ـ تفخر به وتقول :

أنا ابنة المهاجر الذي فداه رسول الله ﷺ يوم أحد بالأبوين[2] .

* وإلى جانب هذه الفضائل ، وهاتيك الخصال الحميدة ، روى سعد عن النبي ﷺ فأكثر وأطاب وأجاد ، إذ رَوَى عنه (٢٧٠) حديثاً ، وقد روت عائشة أوّل ما روتْ عن أبيها ـ رضي الله عنه ـ ،

---

(١) ولدت عائشة سنة (٣٣ هـ) .

(٢) البداية والنهاية (٧٦/٨) ، وسير أعلام النبلاء (١٠١/١) . وفي الصّحيح أنّ سعيد بن المسيب قال : سمعت سعداً يقول : نثل ـ استخرج ـ لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال : « ارم فداك أبي وأمي » أخرجه البخاري في مواضع منها (٤٠٥٥) و (٤٠٥٦) و (٤٠٥٧) في المغازي ، وقبله (٣٧٢٥) في الفضائل ؛ ومسلم (٢٤١٢) في الفضائل ، والترمذي (٣٧٥٤) و (٣٧٥٥) ، وابن ماجه (١٢٩) و (١٣٠) ، وأحمد (٩٢/١ و ١٢٤ و ١٣٦ و ١٣٧) .

وعن عدّة من أزواج النّبي ﷺ ، فقد روى أيوب السّختياني ـ رحمه الله ـ عن عائشة بنت سعد أنها قالت : أدركتُ ستاً من أزواج النّبيّ ﷺ[1] .

* وروت عائشة كذلك عن أم درّة المدنيّة ، وأمّ درّة هذه راوية من راويات الحديث الثّقات ، كانت مولاةً لعائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ .

* أمّا مَنْ روى الحديث عن عائشةَ بنتِ سعد فكُثُر منهم : الجعد بن عبد الرحمن ، وأيوب السّختياني ، والحكم بن عُتَيبة ، وأبو الزّناد ، ومهاجر بن مسمار ، وعبيدة بن نابل ، ومالك بن أنس[2] وآخرون .

* والحقيقة : إنّ امرأة من تلامذتها ورواتها الإمام مالك لكبيرةُ الشّأن في العلم ، عالية القدر في الفقه ، ومن الجدير بالذكر أن الإمام مالك ـ رحمه الله ـ لم يروِ عن امرأة غيرها[3] .

---

(١) المعرفة والتاريخ للبسوي (٣/١٩) .

(٢) مالك بن أنس بن مالك الأصبحيّ الحميريّ ، أبو عبد الله ، المدنيّ ، الفقيه : إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة ، وإليه تُنسب المالكية ـ كان رأس المتقين ، وكبير المثبتين ، ولد بالمدينة سنة (٩٣ هـ) ، كان صلباً في دينه ، وكان معظّماً عند هارون الرّشيد ، صنّف « الموطأ » وله كتب كثيرة ، وألفت حوله كتبٌ عديدة أشهرها في العصر الحديث « مالك بن أنس » لمحمد أبي زهرة ، ومناقبه كثيرة جداً . توفي بالمدينة المنوّرة سنة (١٧٩ هـ) وله ست وثمانون سنة ـ رحمه الله تعالى ـ .
(تقريب التهذيب : ٢/٢٢٣) ، و (الأعلام : ٥/٢٥٧ و ٢٥٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/٥٢) .

* وكانت عائشة ـ رحمها الله ـ من ثقات راويات الحديث النّبويّ الشّريف ، قال عنها العجليُّ : عائشة بنت سعد مَدَنيّةٌ ، تابعيّةٌ ، ثقة ، أمّا ابن حبّان ـ رحمه الله ـ فقد ذكرها في الثقات ، وقد روى لها الإمام البخاري وغيره .

* * *

عِبَادَتُهَا وَصَلَاتُهَا فِي المَسْجِدِ :

* إلى جانب الرّواية والفقهِ ، كانت عائشة بنت سعد ـ رحمها الله ـ من النّساء اللاتي وهبن أنفسهن للعبادة والصّلاة ، والمحافظة على أداء الصّلوات في المسجد النّبوي الشّريف ، لأن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد ، وكثيراً ما كانت تشهد صلاتي الصّبح والعشاء في المسجد[1] ، ويدلُّ على هذا ما ذكره حبيب بن أبي مرزوق قال :

---

(١) مما يفيدُ قوله في هذا المقام ما يقوله الفقهاء بأنه يجوز للنّساء الخروج إلى المساجد ، وشهود الجماعة ، بشرط أنْ يتجنبْنَ ما يثيرُ الشّهوة ويدعو إلى الفتنة من الزّينة والطّيب وما شابه ذلك . فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال : « لا تمنعوا النّساء أنْ يخرجنَ إلى المساجد ، وبيوتهن خير لهن » رواه أحمد وأبو داود . وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : « أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة » رواه مسلم وأبو داود والنّسائي بإسناد حسن .
والأفضل للنّساء والأقوم لهن الصّلاة في بيوتهن . روى الإمام أحمد والطّبراني عن أم حُميد السّاعدية أنّها جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إني أحبُّ الصّلاة معك ؛ فقال ﷺ : « قد علمتُ ، وصلاتُك في حجرتك خير لك من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير لك من صلاتك في مسجد الجماعة » .

لقيت امرأة بالمدينة معها نسوة ، وضوء نار ـ يعني شعلة ـ خارجة من المسجد ، فسألتُ عنها فقالوا : هذه بنت سعد بن أبي وقاص .

* * *

عَائِشَةُ وشَخْصِيَّةُ أَبِيهَا :

* عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال :

كنّا مع رسول الله ﷺ ، إذ أقبل سعدُ بن مالك ـ اسم أبي وقاص مالك ـ فقال رسول الله ﷺ :

« هذا خالي فليُرِني امرؤٌ خالَه[1] » .

* وهذا النَّسَب الطّاهر ، وهذه القرابة الشَّريفة لسعد من جهة أمّ النبي ﷺ ، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف الزّهرية ابنة عم أبي وقاص ، لذلك كان عليه الصّلاة والسّلام يقول عن سعد : « هذا خالي » .

* وبعد هذا ، حقَّ لنا إذن أنْ نقولَ عن عائشة بنت سعد بأنها ابنة خال رسول الله ﷺ ، فأكرم بهذا الشَّرف ! وأعظم به ! .

* وقد وصفتْ عائشةُ والدها وصفاً دقيقاً ، كان عمدة الكتّاب والمؤرخين في معرفة صورته ، إذ أعطت ملامح دقيقة عن شخصيته وشكله فقال :

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٧٥٣) ، وانظر البداية والنهاية (٧٨/٨) .

كان أبي رجلاً دَحْداحاً ـ قصيراً ـ غليظاً ذا هامةٍ ، شَثْن الأصابع ـ غليظها بلا قصر ـ أشعر ، وكان يخضب بالسَّواد[1] .

* ولما بعث رسول الله ﷺ سرية فيها سعد بن أبي وقاص إلى جانب من الحجاز ، يُدعى « رابغ » انكفأ المشركون على المسلمين ، فحماهم سعد يومئذ بسهامه ، فكان هذا أول قتال في الإسلام . وروت عائشة ابنته أنَّ أباها قال يومئذ :

ألا هـــلْ أتى رســـول اللهِ أنّي
حميتُ صحـــابتي بصـــدور نَبْـلي
أذودُ بهـــا عـــدوّهـــمُ ذيـــاداً
بكـــلِّ خُزُوَنَـة وبكـــلِّ سـهـــلِ
فمـــا يعتـــدُّ رامٍ منْ مَعـــدّ
بســـهـمٍ مع رســـول اللهِ قبـلي[2]

* ومما روته عائشة ـ رحمها الله ـ عن أحوال والدها أنّها قالت : قال سعد :

اشتكيتُ بمكـــةَ ، فدخـل عليَّ رســولُ الله ﷺ يعودني ، فمسح وجهي وصدري وبطني وقال : « اللهم اشفِ سعداً » ، فما زلتُ يُخيَّلُ إليَّ أني أجد بَرْدَ يدهِ ﷺ على كبدي حتى السّاعة[3] .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/١٤٣) .
(٢) الطبقات (٣/١٤٢) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١/١١٠) ، والحديث أخرجه البخاري (٥٦٥٩) ، والنسائي (٦/٢٤١) .

* ومن خلال أخبار عائشة عن والدها ، يمكن لنا أنْ نعرف جوانب هامة عن حياة هذا الصَّحابي الكريم ، فقد أخبرتنا عن أعماله ، وغزواته ، وأمواله ، وذكرت وفاته وغير ذلك مما يدلُّ على اهتمامها بتبليغ العلم ، ونشر فضائل الصَّحابة الكرام عن هذا الطريق ، والآن ، لنقرأ سوياً هذه الفقرات الكاشفة التي تحدّدُ فيها عائشة مكان وفاة والدها .

قالت عائشة :

مات أبي رحمه الله في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة ، فحُملَ إلى المدينة على رقاب الرِّجال ، وصلى عليه مروان بن الحكم وهو والي المدينة وذلك في سنة (٥٥ هـ) ، وترك يوم مات مئتي ألف وخمسين ألفاً[1] .

* * *

مَعَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ :

* تشيرُ أخبار عائشة بنت سعد ـ رحمها الله ـ إلى أنَّها كانت على صلَة دائمة بزوجات النَّبيّ ﷺ ، وأنَّها كانت تدخل عليهن ، فيكرمنها ، ورعا دعون لها بالبركة ، وقد نقلت إلينا هذه التَّابعية بعض الصُّور التي تتعلّقُ ببعض القواعد الشَّرعية ، والأحكام الإسلامية ، من ذلك ما أخرجه محمّد بن سعد بسنده عنها أنَّها قالت :

أدركتُ ستاً من أزواج النَّبي ﷺ ، وكنت أكون معهن ، فما رأيت

---

(١) الطبقات (٣/١٤٨ و ١٤٩) ، وسير أعلام النبلاء (١/١٢٣) .

على امرأة منهن ثوباً أبيض ، وكنتُ أدخل عليهن وعليَّ الخَلَل فلا يعبْنَ ذلك عليَّ فقيل لها : ما هو ؟ .

قالت : قلائد الذّهب ومزيقيات الذّهب ، فلا يعبن ذلك عليَّ .

* وعن فقه عائشة بنت سعد وخصوصاً في الوضوء ، حدثت عبيدة بنت نابل عن ذلك فقالت : كان لعائشة بنت سعد خاتمان من وَرِق ـ فضة ـ في اللتين تليان الخنصر ، فكانت إذا توضأت أجالتهما .

* ولعلّ عائشة بنت سعد ـ رحمها الله ـ ، كانت في صلاتها وفي نوافلها لا تخرج عما كانت عليه أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، فقد أخرج الإمام أحمد بسنده ، عن عائشة بنت سعد عن أمّ ذرّة قالت : رأيتُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ تصلّي الضّحى وتقول : ما رأيت رسول الله ﷺ يصلي إلا أربع ركعات[1] .

* وفي سنة (١١٧ هـ)[2] لقيت عائشة بنت سعد ربّها ؛ بعد أن قضت قرابة تسعين عاماً إلا قليلاً قضتها في العلم والرّواية ، وكانت آخر مَنْ بقي من بنات المهاجرين ، فقالت :

واللهِ ما بقيَ على وَجْهِ الأرض بنت مهاجر ولا مهاجرة غيري .

* رحم الله عائشة بنت سعد ، وجعلها مع الذين سُعدوا في الجنّةِ خالدين فيها .

* * *

(١) رواه أحمد في المسند (٦/١٠٦) .
(٢) الكامل في التاريخ (٥/١٩٥) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

أم كلثوم بنت أبي بكر

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١)

أمّ كلثوم بنت أبي بكر

• عندما كانت أم كلثوم جنيناً في بطن أمها قال أبوها أبو بكر لعائشة :
استوصي بها خيراً .

• وقال لها زوجها طلحة الفيّاض :
إنك مُوفّقة بنت مُوفّق .

أمُّ كُلْثُوم بنْتُ أبِي بَكْرٍ

أبْوابُ المَكارِمِ :

* جُمِعَتْ لهذه التَّابعية من الفضائل ما لم يُجمع لامرأةٍ سواها ؛ فيمن عاصرها من نساء التابعين .

* فصهرُها : أفضل خلقِ الله على الإطلاق ، محمّد رسول الله ﷺ ، زوج أختها عائشة ـ رضي الله عنها ـ .

* وأبوها : ثاني اثنين إذْ هما في الغار ، ومجمع كلّ فضيلة ، الصّدّيق الأوّلُ ، والخليفة الأولُ ، سيّدنا أبو بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ ، الذي قال فيه القائل فأجاد :

لا تُفضّلْ على العتيق صديقاً
فهو صدّيق أحمدَ المختار
وإنْ ارتبْتَ في الأحاديث فاقرأ
« ثاني اثنين إذ هما في الغار »

* وجدُّها لأبيها : أبو قحافة ، صحابيٌّ وأبو صحابيٌّ ـ رضي الله عنهما ـ .

* وجدّتُها لأبيها : أمُّ الخير سلمى بنت صخر ، صحابية قديمة

الإسلام ـ رضي الله عنها ـ[1].

* وأختُها : عائشةُ أمُّ المؤمنين ، الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق الأكبر ، زوجة النَّبيِّ ﷺ ، أفقَه نساء الأمَّة على الإطلاق ـ رضي الله عنها ـ .

* وأختُها الأخرى : أسماءُ بنت أبي بكر ذات النِّطاقين ـ رضي الله عنها ـ .

* وإخوتها لأبيها : عبد الرحمن ، وعبد الله ، ومحمَّد ، من فرسان مدرسة النُّبوَّة ، ومن أبطال المسلمين ، ومن الشُّجعان المذكورين .

* أمَّا زوجها : فهو سِلْف النَّبيِّ ﷺ ، ومن سبق إلى الإسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنَّة ، وأحد الأخيار الأجواد سيدنا طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ .

* وأمَّا التَّابعية صاحبة هذه المكارم ، ومَنْ نستمتع بسيرتها فهي أمُّ كلثوم بنت أبي بكر الصِّدِّيق ، وأمُّها حبيبة بنت خارجة الأنصاريَّة الخزرجيَّة[2] ، تزوَّجها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في الإسلام .

* وكان لأمِّ كلثوم هذه شأن وهي ما تزال حَمْلاً في بطن أمِّها ، حيث إنَّ أبا بكر الصِّدِّيق أوصى بها أختها عائشةَ وصيةً تدلُّ على فِراسَته وإكرام الله عزَّ وجلَّ له ، ونحن إن شاء الله مرسلو القول في هذا .

* * *

(١) اقرأ سيرة سلمى بنت صخر أم سيدنا أبي بكر في كتابنا « نساء من عصر النبوة » الجزء الأول .

(٢) الطبقات (٨/٤٦٢) ، ونسب قريش (ص ٢٧٨) ، وتاريخ الإسلام (٤/١٣٦) ، وتهذيب التهذيب (١٢/٤٧٧) .

« اسْتَوْصِي بِهَا خَيْراً » :

* كان سيّدنا أبو بكر الصّدّيق ـ عليه سحائب الرّضوان ـ قد وَهَبَ لابنته عائشة ـ رضي الله عنها ـ أرضاً بالعالية[1]، وكان النّبيُّ ﷺ أعطاه إياها فأصلحها وغرس فيها ، ثم جعلها لابنته أمّ المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ ؛ فلما حضرته الوفاة ـ وكانت زوجته حبيبة حاملاً ـ فكّر في ردّ المال على ورثته ، وكان شديد الحرص على أنْ يدعَ هذه الدّنيا بريئاً ، وعلى أنْ يلقى الله عزّ وجلّ وقد ألقى عن نفسه كلّ ما يخشى أنْ يؤاخذه اللهُ عزّ وجلّ به ، عندئذ دعا ابنته عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقال لها :

يا بنية ، إنّ أحبّ النّاس غنىً إليّ بعدي أنتِ ، وإنّ أعزّ النّاس عليّ فقراً بعدي أنتِ ، وإنّي كنتُ نحلتُكِ ـ أعطيتُكِ ـ أرضي التي تعلمين ، وإنّك لم تحوزيها ، وأنا أحبُّ أن تردّيها عليّ فيكون ذلك قسمة بين ولدي على كتاب الله عزّ وجلّ ؛ فإنّما هو مال الوارث ، وإنّما هما أخواك وأختاك .

قالت عائشة ـ رضوان الله عليها ـ : هذه أختي أسماء قد عرفتها ، فمن الأخرى ؟ ! .

قال ـ رضوان الله عليه ـ : ذو بطن ابنة خارجة ، قد أُلقيَ في رُوعي أنّها جاريةٌ ؛ فاستوصي بها خيراً .

---

(١) « العالية » : اسم لكل ما كان من جهة نجد إلى المدينة المنورة من قراها وعمايرها إلى تهامة .

فكانت كما قال ، وولدت أمُّ كلثوم بعد موته ـ رضي الله عنه ـ[1] .

* ومن الجدير بالذِّكر أنَّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قد ورثه أبوه أبو قحافة ، وزوجتاه : أسماء بنت عميس ، وحبيبة بنت خارجة ، وأولاده : عبد الرحمن ، ومحمد ، وعائشة ، وأسماء ، وأم كلثوم[2] .

* * *

أُمُّ كُلْثُوم وَتَرْبِيَةُ عَائِشَةَ :

* حافظت أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ على وصية أبيها ، وحفظتها في أختها أمّ كلثوم ـ وكانت بها مستوصية ـ فلما شبت أمُّ كلثوم عن الطَّوق ، أخذت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ ترعاها رعاية الأم الرَّؤوم ، وتحفظها من كلّ ما يدعو إلى إزعاجها ، وراحت تعلمها وتلقنها المعارف ، حتى تخرّجتْ من مدرستها الفقهية والحديثية وروت عنها ، وأضحت من حافظات حديث رسول الله ﷺ ، ومن النِّسوة الثِّقات اللاتي يؤخذ عنهن الحديث .

* وقد روى عن أمّ كلثوم بنت أبي بكر جَمْعٌ من أهل العلم والمعرفة والفضل ، وفي مقدمتهم : سيّدنا جابر بن عبد الله الأنصاري الصَّحابي المشهور ، وهو أكبر منها ، وهي من التّابعيات اللواتي روى عنهن الصَّحابة .

---

(١) انظر المصادر التالية بعد الجمع بينها : الطبقات (٣/١٩٤ و ١٩٥) ، ونسب قريش (ص ٢٧٨) ، والحيوان للجاحظ (٦/٥٠) .

(٢) الطبقات (٣/٢١٠) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/١٢٠) .

* وروى عنها ابنها : إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، وطلحة بن يحيى بن طلحة ، والمغيرة بن حكيم الصَّنعاني[1] ، وجُبير بن حبيب ، وغيرهم[2] .

* وروى لها الإمام مسلم في الصَّحيح ، والترمذي في السُّنن . ومن مروياتها ما أخرجه الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ بسنده عن المغيرة بن حكيم الصَّنعاني ، عن أمّ كلثوم بنت أبي بكر أنّها أخبرته عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت :

أعْتَمَ النَّبيُّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ حتى ذهب عامَّةُ الليل ، وحتى نام أهلُ المسجد ، ثم خرج فصلى ؛ فقال : « إنَّه لوقتُها لولا أنْ أشقَّ على أمتي »[3] .

* * *

أتَرْغَبِينَ عَنْ أمِيرِ المُؤمِنِينَ ؟ :

* كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه ـ صاحب الأمر في الجزيرة

---

(١) المغيرةُ بن حكيم الصَّنعاني التابعيّ ، روى عن أبيه وابن عمر وأبي هريرة ، وأم كلثوم بنت أبي بكر الصديق ، وفاطمة بنت عبد الملك ؛ وروى عنه مجاهد ، ونافع مولى ابن عمر ، وعمرو بن شعيب وآخرون .
وثّقه يحيى بن معين والنسائي والعجلي ، وذكره ابن حبّان في الثقات ، وروى له البخاري ومسلم . (تهذيب التهذيب : ١٠/٢٥٨) .

(٢) تهذيب التهذيب (١٢/٤٧٧) .

(٣) صحيح مسلم (٢/٦١٦) كتاب الصلاة ، باب : وقت العشاء وتأخيرها .
« وحتى نام أهل المسجد » : هذا محمول على نوم لا ينقض الوضوء ، وهو نوم الجالس ممكناً مقعده .

العربية ، وصاحب الغلبة على مُلْك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة ، ومدبّر الحُكْم في المدينة المنوّرة ـ رجلاً يعيش في بيته عيشة الكفاف ، يقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يشمناه كثير من الرّجال ، ويزهد فيه كثير من النّساء .

* وليس عجباً أن يخطبَ الخليفة عمر بعض النّساء ، فيأبين عيشه ، لأنه كما وصفته أمّ أبان بنت عتبة بن ربيعة ـ وكان قد خطبها فرفضت ـ : إنّه رجلٌ أذهله أمْرُ آخرته عن أمر دنياه ، كأنّه ينظر إلى ربّه بعينه .

* وهذا ما كان وحدث لأمّ كلثوم بنت أبي بكر مع أمير المؤمنين عمر ، فقد خطب سيدنا عمر أمّ كلثوم إلى أختها عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ ، وأرسل لعائشة في ذلك ، فقالت له : الأمر إليك ، ثم سألت أختها ـ أمّ كلثوم ـ فأبتْهُ وقالت : لا حاجة لي فيه ، فزجرتها عائشة وقالت : أترغبينَ عن أميرِ المؤمنين ؟ ! .

قالت : نعم ، إنّه خشنُ العيش ، شديدٌ على النّساء ، ولا طاقةَ لي بذلك .

* وكرهت أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنْ تجْبَه عمر بالرّفْض ، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص[1] ـ رضي الله عنه ـ فأخبرته ، ووسطته أنْ يحتالَ لعمر برفْقِهِ وحُسْنِ تدبيره ، فقال عمرو : أكفيك .

---

(١) في الأغاني (١٣/١٣٩) ، والعقد الفريد (٦/٨٩ و ٩٠) أن المغيرة بن شعبة هو الذي قام بالوساطة بدلاً من عمرو .

فأتى عمر وقال له : يا أمير المؤمنين ، بلغني خبرٌ أعيذك بالله منه .

قال : وما هو ؟ .

قال : خطبت أمّ كلثوم بنت أبي بكر ! .

قال : نعم ، أفرغبتَ بي عنها ، أمْ رغبت بها عني ؟ .

قال : لا واحدة ؛ ولكنّها حدَثَة ، نشأت تحت كنف أمّ المؤمنين في لين ورفق ، وفيك غلظةٌ ، ونحن نهابك ، وما نقدر أنْ نردّك عن خُلُق من أخلاقك ؛ فكيف بها إنْ خالفَتْكَ في شيءٍ فسطوتَ بها ، كنتَ قد خلفتَ أبا بكر في ولده بغير ما يحقّ عليك ؟ !! .

ولكنّ عمرَ العبقريَّ الذكيَّ فهم أنّ عمرو بنَ العاص ؛ لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسّط ، وأنّ في الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء ، فسأله كأنّه يستطلع مَا وراءه من هذه الممانعة وقال : فكيف بعائشة وقد كلّمتها ؟ .

قال : يا أمير المؤمنين ، أنا لك بها ، وأدلك على خير منها ، أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب ، تعلّق منها بنسب من رسول الله ﷺ .

* * *

(١) عن تاريخ الطبري (٢/٥٦٤) ، والبداية والنهاية (٧/١٤٤) بتصرف يسير .

وأودّ هنا ألا أترك هذه الحادثة تمرُّ دون تعليق ، فقد كانت قسوة سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ غلافاً ، فلا تطول بالناس عشرته حتى ينقشع هذا الغلاف عن قلب مفعم بالعطف والمودة ، مفتّح الجوانب لكلّ عاطفة كريمة ، فنساؤه اللاتي عاشرنه قد كلفن بحبّه ، ورضين بمودته وعطفه ، واقرأ في هذا سيرة زوجه عاتكة بنت زيد في كتابنا « نساء من عصر النبوة » الجزء الأول ؛ تر من خلال ذلك مصداق ما قلناه من خلال رثائها لعمر ، ولولا مودته التي تفد إلى القلوب لما بكته عاتكة ذلك البكاء الشديد ـ رضي الله عنه وعنها ـ .

إنكِ مُوَفَّقَةٌ بنتُ مُوَفَّقٍ :

* تزوّج أمّ كلثوم بنتَ أبي بكر ، سيّدنا طلحةُ بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ ، فولدت له زكريا ، ويوسف ، وعائشة بنت طلحة .

* وعاشت أمّ كلثوم مع زوجها طلحةَ عيشة المؤمنة العابدة الرّاضية ، وكانت خير زوجة ، وخير أمّ ، وما حَمِدَ النّاس فضيلة للمرأة بنتاً كانت أو زوجاً أو والدة ، إلا وكانت أمّ كلثوم فيها على أجملها وأسماها ، وأحقّها بالتّمجيد والإكبار .

* فقد كانت أمّ كلثوم ـ رحمها الله ـ ، ورثتْ عن أبيها الكرم ، ـ ومَنْ كأبي بكر في الكرم ؟ ـ كما نشأت في تربية أختها عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وعائشة مشهورة بالجود والكرم ، مشهود لها بهذه الفضيلة ، ثم إنّ طلحة ـ زوج أمّ كلثوم ـ قد سماه النّبيّ ﷺ : طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وبين هذه الخصال الحميدة عاشت أمّ كلثوم تشجع زوجها على المضي في الإنفاق في وجوه الخير ، وشهد شاهد من أهل طلحة لأمّ كلثوم بهذه الفضيلة ؛ فقد ذكر موسى بن طلحة بن عبيد الله ، أنّ أباه طلحة ـ رضي الله عنه ـ أتاهُ مالٌ من حضرموت سبعمئة ألف فبات ليلته يتململ .

فقالت له أمّ كلثوم : مالك يا أبا محمد ؟ .

قال : تفكرتُ منذ الليلة فقلتُ : ما ظنُّ رجلٍ بربِّه ، يبيت وهذا المال في بيته ؟ ! .

فقالت : فأين أنت عن بعض أخلّائك ، فإذا أصبحتَ فاقسمها .

فقال لها ـ وقد سُرّ برأيها وذهب عنه ما كان يجده ـ : رَحِمك الله ! إنّكِ موفقةٌ بنت موفقٍ . قال موسى ـ وهي أم كلثوم بنت أبي بكر ـ .

فلما أصبح ، دعا بجفان ، فقسمها بين المهاجرين والأنصار ، فبعث إلى عليّ ـ بن أبي طالب ـ منها بجفنة .

فقالت له أمّ كلثوم : أبا محمد ! أما كان لنا في هذا المال من نصيب ؟ .

قال : فأين كنتِ منذ اليوم ؟ فشأنُك بما بقي .

قالت أمّ كلثوم : فكانت صرّة فيها نحو ألف درهم[1] .

ولا شكَّ في أنَّ أمّ كلثوم قد سارعت هي الأخرى بالإنفاق ؛ لتحوز فضيلة الكرم ، فبعثت بالدّراهم إلى مستحقّيها .

• وظلّت أمّ كلثوم مع زوجها طلحة إلى أنْ قُتِلَ يوم الجمل سنة (٣٦ هـ) ، عندئذ أخرجتها عائشة إلى مكة ، وورد أنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، حجّت بأختها أمّ كلثوم في عِدّتها من طلحة[2] .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٣١/١) بتصرف يسير .

(٢) الطبقات الكبرى (٤٦٢/٨) و « العِدّة » : مأخوذة من العدّ والإحصاء ، أي ما تحصيه المرأة ، وتعدّه من الأيام والأقراء . وهي المدة التي تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن التزويج بعد وفاة زوجها أو فراقه لها . وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ما لم تكن حاملاً .

ويقول الفقهاء : ويجبُ على المعتدة أنْ تلزم بيت الزّوجية حتى تنقضي عدتها ، ولا يحلُّ لها أن تخرج منه ، ولا يحلُّ لزوجها أنْ يخرجها منه ، ولو وقع الطّلاق ، أو =

بَعْدَ طَلْحَةَ :

• بعد مقتل طلحة ـ رضي الله عنه ـ ، تزوّجت أمّ كلثوم عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ ـ عمّ الشّاعر المشهور عمر بن أبي ربيعة ـ فولدت له عثمان ، وموسى ، وإبراهيم ، وأمّ حميد ، وأمّ عثمان[1] .

• وظلّت أمّ كلثوم بنت أبي بكر ـ رحمها الله ـ تتابعُ حياتها في المدينة تحت ظلالِ فقْهِ أختها عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ .

• ولم تُشرِ المصادرُ إلى تحديد وفاة أمّ كلثوم ، ولم تذكر كذلك مكان وفاتها ، ولكنّ الدلائل تشيرُ إلى أن وفاتها كانت في المدينة المنورة .

• ويبدو أنّ وفاتها كانت بعد سنة (٥٨ هـ) ، أي بعد وفاة أختها عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ .

= حصلتِ الفرقةُ ، وهي غير موجودة في بيت الزوجية وجب عليها أنْ تعودَ إليه بمجرّدِ علْمها بذلك .

وللفقهاءِ أقوالٌ في خروج المتوفى عنها زوجها ؛ فذهب بعضهم إلى أنْ تخرجَ نهاراً وبعضَ الليل ولكنْ لا تبيت إلا في منزلها ، وذلك أنّ سببَ خروجها هو إصلاحُ حالها وشؤونها وأمور معيشتها .

ولهذا فقد كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تفتي المتوفى عنها زوجها بالخروج في عدتها ، وخرجت بأختها أمّ كلثوم حين قُتل عنها طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ إلى مكةَ في عمرةٍ أو حجٍّ .

وهذا بابٌ واسع ؛ يُراجع في كتب الفقه كالأم للشّافعي .

(١) أنساب الأشراف (٤٢١/١) ، وجمهرة أنساب العرب (١٤٧/١) ، وتاريخ الإسلام (١٣٦/٤) ، والطبقات (١٧٢/٥) .

* وهكذا طويت صفحةٌ تابعية كريمة الأعراق ، طيّبة الأخلاق ، فرحم الله أمّ كلثوم بنت أبي بكر ، فقد كانت بحقّ خير ابنة ، وخير زوجة ، وخير أمّ ، وخير متعلّمة ومعلّمة ـ محدثة ـ ، وحقٌّ لها أنْ تكون قدوة لغيرها ، ومثلها فلتكن النّساء .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

زينب بنت علي

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

www.dawahmemo.com

(١٣)

زينب بنت عليّ

• راوية للحديث النبوي الشريف ، حازمة ، ذات عقل راجح ، بليغة ، خطيبة ، لها محاورة مع يزيد بن معاوية الخليفة الأموي .

زَيْنَبُ بِنْتُ عَلِيّ

كَرَمُ الآباءِ والأجْدادِ :

* وليدةٌ مباركةٌ استقبلتْها مدينةُ رسول الله ﷺ في العام الخامس من الهجرة النبويّة .

* وفي بيت كريمِ الآباءِ والأجداد كان مولدُها .

فجدُّها : سيّدنا رسول الله محمّد ﷺ ، وخير خَلْقِ الله على الإطلاق ، فهل بعد هذا مِنْ فخر ؟ .

وجدّتُها : صدّيقةُ المؤمنات الأولى ، وأول النساء ـ في عهد النبوة ـ إسلاماً خديجة بنت خويلد[1] أم المؤمنين ، وسيّدة نساء العالمين في زمانها ، وهي ممن كمُلَ من النّساء ، كانت عاقلة جليلةً دينةً مصونةً كريمةً من أهلِ الجنّةِ ـ رضي الله عنها ـ .

وأمّها : فاطمة الزّهراء[2] بنت سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ ، سيّدة نساء العالمين في زمانها ، وأحبّ بنات النّبيّ إليه ، وأشبههن به في خَلْق

---

(١) للمزيد من أخبار أمنا خديجة اقرأ كتابنا « نساء مبشرات بالجنة » (١/١٣) .
(٢) للمزيد من أخبار فاطمة الزهراء اقرأ كتابنا « نساء مبشرات بالجنة » (٢/٥٣) .

وفي خُلُق . كانت صابرةً دَيِّنةً خيّرةً صينةً قانعةً شاكرةً لله عزّ وجلّ ـ رضي الله عنها ـ .

وأبوها : سيّدنا عليّ بن أبي طالب عليه سحائب الرّضوان ، فارسُ النّبي الكريم ﷺ وابن عمه ، وأول مَنْ آمنَ به من الصِّبيان ، أمير المؤمنين ، وأبو السِّبْطَيْن ، وأول هاشمي وُلِدَ بين هاشميين ، وأول خليفة من بني هاشم ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنّة ، وأحد العلماء الرّبانيين ، والشّجعان المشهورين ، والزّهاد المذكورين ـ رضي الله عنه ـ .

وجدّتُها لأبيها : فاطمة بنت أسد الهاشمية[1] ، كانت من المهاجرات الأُوَل ، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً ، وعندما توفيت ألبسها رسول الله ﷺ قميصه لتكسى من حُلل الجنّة ـ رضي الله عنها ـ .

وأخواها الشّقيقان : هما الحسنُ بن علي : وهو الإمام السّيد ريحانة رسول الله ﷺ وسِبْطه ، وسيد شباب أهل الجنّة ، وشبيهُ جده رسول الله ﷺ . وشقيقُها الحسين ، هو الإمام الشّريف الكامل ، سِبْط رسول الله ﷺ ، وريحانته من الدّنيا ومحبوبه ـ رضي الله عنه ـ .

• وتلك الوليدة التي ولدت في البيت النّبويّ هي زينبُ بنت عليّ بن أبي طالب الهاشميّة[2] سِبْط رسول الله ﷺ .

* * *

(١) اقرأ سيرة فاطمة بنت أسد في كتابنا « نساء مبشرات بالجنة » (١/٥٣) ففيها كثير من الإشراقات اللطيفة إن شاء الله .

(٢) الطبقات (٨/٤٦٥) ، ونسب قريش (ص ٤١) ، وجمهرة أنساب العرب =

النَّشأةُ العِلْمِيَّةُ الزَّكيَّةُ :

* في ساحةِ البيتِ الشَّريف ، تدرَّجتْ زينبُ بنت عليٍّ محوطة برعايةِ جدها سيِّدنا رسول الله ﷺ وعطفه وحبِّه ، وعلى يدي الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ صُنعت ، وتلقت عنها أمور الحياة ، وهي لا تزال غضَّة صغيرة ، وفي مرحلة الطُّفولةِ الأولى توفي جدها رسول الله ﷺ ثم والدتها الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ ، فوجدت أباها أميرَ البيان ، وعالم الصَّحابة وفقيههم ، فتلقَّتْ عنه علماً جماً جعلها إحدى فرائد الدَّهر أدباً ومعرفة ـ رضي الله عنها ـ .

* وذكر ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ أنَّ زينبَ بنتَ عليٍّ قد حدَّثت عن أمِّها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وأسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ ، ومولى للنَّبي ﷺ اسمه طهمان أو ذكوان .

* وروى عنها : محمَّد بن عمرو[1] ، وعطاء بن السَّائب ، وابنة أخيها فاطمة[2] بنت الحسين بن علي .

- (١/٣٧) ، والإصابة (٤/٣١٤) . وزينب بنت علي هذه ؛ تُعدُّ من الصَّحابيات لأنها ولدت في عصر النبوة ، ولكننا آثرنا أن تكون في عصر التابعيات لأن نشأتها وشهرتها كانت في ذلك العصر .

(١) محمَّد بن عمرو بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشميّ ، أبو عبد الله المدنيّ ، أمّه : رملة بنت عقيل بن أبي طالب . روى عن عمة أبيه زينب بنت علي وابن عباس وجابر ؛ وروى عنه سعد بن إبراهيم وغيره . قال أبو زرعة والنَّسائي وابن خراش وابن أبي حاتم : ثقة . وذكره ابن حبَّان في الثقات (تهذيب التهذيب : ٩/٣٧١) .

(٢) اقرأ سيرة فاطمة بنت الحسين في هذا الكتاب ؛ ففيها ما يدخل السُّرور إلى النفس إن شاء الله .

* ومن روايتها ما أخرجه ابن عساكر بسنده عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الصَّدقة لا تحلّ لمحمّد ولا لآل محمّد، وإنّ مولى القوم منهم[1]».

* * *

مَعَ ابنِ ذِي الجَنَاحَيْنِ:

* كان سيّدنا عليّ ـ رضي الله عنه ـ قد أوقفَ بناته على أبناء أخيه جعفر بن أبي طالب، وها هي زينبُ ابنته تبلغ مبلغ الزّواج، ويتقدم لخطبتها شباب من بني هاشم ومن قريش، غير أنَّ سيّدنا علياً ـ رضوان الله عليه ـ قد اختار لها ابنَ أخيه عبدَ الله بنَ جعفر ـ رضي الله عنهما ـ.

* وعبد الله بن جعفر هذا؛ هو السيّد العالم، أبو جعفر القرشيّ

---

(١) تاريخ دمشق (ص ١٢٠).

وفي تحريم الصّدقة على بني هاشم: يقول ابن قُدامة: لا نعلمُ خلافاً في أنَّ بني هاشم لا تحلُّ لهم الصّدقة المفروضة، وقد قال النّبيُّ ﷺ: «إنَّ الصّدقة لا تنبغي لآل محمّد إنّما هي أوساخ النّاس» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أخذ الحسنُ تمرة من تمر الصّدقة، فقال النّبيّ ﷺ: «كخ كخ: ليطرحها، أما شعرت أنّا لا نأكل الصّدقة» متفق عليه.

وكما حرّم النّبيّ ﷺ الصّدقة على بني هاشم، حرّمها كذلك على مواليهم ـ خدمهم ـ فعن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أنَّ النّبيَّ ﷺ بعث رجلاً من بني مخزوم على الصّدقة فقال: اصحبني كيما تصيب منها؛ قال: لا حتى آتي رسول الله فأسأله، وانطلق فسأله فقال: «إنّ الصّدقة لا تحلُّ لنا وإنَّ موالي القوم من أنفسهم» رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وقال: حسن صحيح.

الهاشميّ الحبشيّ المولد ، المدنيّ الدّار ، الجوادُ بن الجوادِ ذي الجناحين ، وقطبُ الجود والسَّخاء والكرم ، وهو آخر مَنْ رأى النّبيّ ﷺ وصَحِبَه من بني هاشم . وعبد الله هذا ؛ هو الذي دعا له النّبيُّ الكريم ﷺ بالبركةِ فقال :

« اللهمّ باركْ له في تجارته » .

أضفْ إلى ذلك أنَّ عبدَ الله شبيه رسول الله ﷺ وفيه يقول : « وأمّا عبد الله فيشبه خُلُقي وخَلقي »[1] .

* ومع هذا الزّوج الكريم عاشت زينب ـ رضي الله عنها ـ ، فأنجبت له أربعة بنين وهم : عليّ ، وعون الأكبر ، وعبّاس ، ومحمّد ؛ وولدت له بنتاً واحدة اسمها : أمّ كلثوم .

* وكانت زينب ـ رضي الله عنها ـ تُسرُ أشدَّ السُّرور عندما ترى مروءة زوجها ، وجُوده وبَذْله ، وكيف لا ؟ وهو مِنْ أهل بيت النّبوة أهل الجود والكرم والبذْل والعطاء .

* قيل : إنّ أعرابياً قَصد مروان بن الحكم فقال : ما عندنا شيء ، فعليك بعبدِ الله بن جعفر ، فأتى الأعرابي عبد الله فأنشأ يقول :

أبو جعفر من أهل بيت نُبوّةٍ
صلاتهمُ للمسلمين طهُورُ
أبا جعفر إنَّ الحجيجَ ترحّلوا
وليس لرحلي فاعلمن بعيرُ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤٥٨/٣) .

أبـا جعـفـر ضَـنَّ الأمـيـر بمـالـه
وأنتَ عـلـى مـا في يـديك أمـيرُ
أبـا جعفر يا بن الشّهيد الذي له
جنـاحـان في أعـلى الجنـان يطـيرُ
أبـا جعـفـر ما مثـلك اليوم أرتجي
فـلا تـتـركني بـالفـلاة أسـيرُ

فقال : يا أعرابي سار الثَّقل ، فعليك بالرّاحلة بما عليها ، وإياك أنْ تُخدعَ عن السَّيف ، فإنّي أخذته بألف دينار[1] .

* * *

زَيْنَبُ بَطَلَةُ المَوَاقِفِ :

* عُرفت زينب ـ رضي الله عنها ـ بأنّها امرأة جزْلة الرّأي حازمة ، ذات عقل راجح ، وبلاغة نادرة بين النّساء ، وكانت ثابتة الجنان ، رفيعة القَدْر ، خطيبة ، فصيحة ، وكانت مع أخيها الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء ، وكذلك بعض أولادها .

* وفي أرض كربلاء ، اقتربت من خيمة أخيها الحسين ـ رضي الله عنه ـ فسمعته يرتجز :

يـا دهـرُ أفٍّ لكَ مِنْ خَـلـيـلِ
كَمْ لكَ بـالإشـراقِ والأصـيـلِ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤٥٩/٣) .

مِنْ صـــاحبٍ أو طـالبٍ قتيـلِ
والدّهـرُ لا يقنـعُ بـالبـديـلِ
وإنّمـــا الأمـرُ إلى الجـليـلِ
وكلُّ حيٍّ سـالكُ السّبيـلِ

وأعاد هذا الرجز مرتين أو ثلاثاً ، فلم تملك زينب نفسها حتى وثبت تجر ثوبها حتى انتهت إلى الحسين ، وتوقعت حَدَثاً جليلاً فنادت : واثكلاه ... ، عندئذٍ أوصاها قائلاً : يا أخية ، إني أقسم عليك ألا تشقي علي جيباً ، ولا تخمشي عليّ وجهاً ، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إنْ أنا هلكتُ[1] .

* واستشهد الحُسين ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، ونفّذتْ وصيته ، ولما قُدِمَ بها على يزيد بن معاوية مع أهلها كانت بطلة الموقف ، إذ تكلمت فأحسنت وأوجزت ، ووصفتها أختها فاطمة بنت علي يومذاك فقالت : كانت أختي زينب أكبر مني وأعقل .

* وتروي المصادر أن محاورة طويلة جرت بين زينب ويزيد بن معاوية تدلُّ على فطنتها وبلاغتها وقوة حجتها ، وانتهتْ هذه المحاورة بأنْ استحيا يزيد منها وسكت ، وأحسن مثواها ومَنْ كان معها وردّهم إلى المدينة رداً جميلاً ، وقال للنُعمان بن بشير الأنصاري :

يا نعمان بن بشير جهزهم بما يصلحهم ، وابعث معهم رجلاً من أهل الشّام أميناً صالحاً ، وابعث معه خيلاً وأعواناً فيسير بهم إلى المدينة .

---

(١) عن الكامل (٤/٥٨ و ٥٩) بشيء من التصرف والاختصار .

ثم أمر بالنّسوة أنْ ينزلن في داره على حدة معهن أخوهن علي بن الحسين في الدّار التي هو فيها ، فخرجنَ حتى دخلن دار يزيد ، فلم يبقَ من آل معاوية بن أبي سفيان امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين ، وعلى مَنْ قُتلَ معه وخاصة أولاد زينب بنت علي ـ رضي الله عنهما ـ ، فقد كان ابناها : عون الأكبر ومحمد قد استشهدا مع الحسين ـ رضي الله عنه ـ ، وكذلك بقية الشُّهداء من آل جعفر ومن بني عبد المطلب .

* ثم إنَّ يزيد بن معاوية كساهم جميعاً ، وأوصى بهم ذلك الرسول الشَّاميّ ـ وكان بهم مستوصياً ـ فخرج بهم فكان يسايرهم بالليل فيكونونَ أمامه حيثُ لا يفوتون طرفه ، فإذا نزلوا تنحى عنهم ، وتفرّقَ هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم ، وينزل منهم بحيث إذا أراد إنسانٌ منهم وضوءاً أو قضاء حاجة لم يحتشمْ ، فلم يزلْ ينازلهم في الطّريق هكذا ، ويسألهم عن حوائجهم ويلطفهم ويبرّ بهم حتى دخلوا المدينة المنورة[1] .

* * *

« هَلْ جَزَاء الإِحْسَان إلّا الإِحْسَان ؟ » :

* على الرّغم من المصيبة ومن الحزن الذي كان يخيّم على الرّكب العائد إلى المدينة المنوّرة ، لم تنسَ زينب بنت علي ـ رضي الله عنهما ـ

---

(١) عن تاريخ الطبري (٣/٣٣٩ و ٣٤٠) ، وتاريخ دمشق (ص ١٢٢ و ١٢٣) بشيء من الاختصار والتصرف .

أنْ تُحسنَ لمن أحسن إليها ، وتجود ـ كعادتها ـ بما تستطيع ، ولعلَّ جودها وجود أختها فاطمة في هذا الموقف الحزين من أروع أخبار الجود في عالم النِّساء ، فقد أورد الطَّبريُّ وابنُ الأثير أنَّ فاطمةَ بنتَ علي قالت :

قلتُ لأختي زينب : يا أخيّة ، لقد أحسن هذا الرجل الشَّاميُّ إلينا في صحبتنا ، فهل لكِ أنْ نَصِلَه ؟ .

فقالت : والله ما معنا شيء نصله به إلا حُليّنا .

قالت لها : فنعطيه حليّنا .

وأخذت كل واحدة منهما سوارها ودُملجها ، فبعثتا بذلك واعتذرتا إليه ، ثم قالتا له :

هذا جزاؤك بصحبتك إيانا بالحَسَن من الفعل .

فقال : لو كان الذي صنعتُ إنّما هو للدّنيا ، لكان في حليكنّ ما يرضيني ودونه ، ولكنْ واللهِ ما فعلته إلا لله عزَّ وجلّ ، ولقرابتكم من رسول الله ﷺ (١) .

* وقد أثرت عن زينب ـ رضي الله عنها ـ كلمات رائعات تدلُّ على مدى صلتها بالله عزَّ وجلَّ ، من ذلك أنّها كانت تقول : مَنْ أراد أنْ يكون الخلق شفعاءه إلى الله فليحمده ، ألم تسمعْ قولهم : سمع الله لمن حمده ، فخفِ الله لقدرته عليك ، واستح منه لقربك منه .

* * *

(١) عن تاريخ الطبري (٣/٣٤٠) والكامل (٤/٨٨) بتصرف يسير جداً .

« عند مليك مقتدر » :

* لم تعشْ زينب بعد مقتل أخيها وولديها أكثر من سنة ، حيث لبّت نداء المليك المقتدر جلّ جلاله في سنة (٦٢ هـ) .

* أمّا عن مكان وفاتها ، فلم تُشر المصادر إشارة يقينية إلى هذا . لكنه من الجدير بالذكر أنّ بعض المصادر أشارت إلى أنّ زينب دُفنت بمصرَ ، أو بالشّام . غير أنّ صاحبَ كتاب : « الخطط التوفيقية » يأتي بالخبر اليقين تعليقاً على المتداول بين النّاس من أنّ زينبَ بنت عليّ هي المدفونة في الحي المعروف الآن باسمها في القاهرة قال : لم أرَ في كُتُب التواريخ أنّ السّيدة زينب بنت علي ـ رضي الله عنهما ـ جاءت إلى مصر في الحياة أو بعد الممات[1] .

وأغلب الظّن ، أنّ زينب بنت علي قد توفيت في المدينة المنورة ، والله تعالى أعلم .

* ومع وداع زينب بنت علي ـ رضي الله عنها ـ ، تلك المرأة الصّابرة التّقية نتذكر قول جدّها سيدنا رسول الله ﷺ عند ذكرِ المصائب في الحديث الذي رواه علي بن الحسين عن جده رسول الله ﷺ أنه قال :

« ما من مسلم يُصاب بمصيبةٍ فيتذكرها ، وإنْ تقادم عهدها ، فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاهُ الله من الأجرِ مثل يوم أُصيب فيها »[2] .

* رحم الله زينب ورضي الله عنها ، وأدخلها الجنّة مع الصّابرين .

* * *

(١) الأعلام (٦٧/٣) نقلاً عن الهامش .

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه كما في البداية والنهاية (٢٠٥/٧) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

الزرقاء بنت عدي

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

www.dawahmemo.com

(١٥)

الزرقاء بنت عَدِيّ

• فصيحة ، بليغة ، شجاعة ، جريئة ، وفدت على معاوية بن أبي سفيان ؛ وكان بينهما حوار مشهور .

الزَّرْقَاءُ بنْتُ عَدِي

عَامُ الجَمَاعَةِ :

* عندما يُذكر عام الجماعة[1] ، تعمر الإنسانُ مشاعر غير محدودة من السُّرور والابتهاج ، ويحسُّ كأنَّ الدُّنيا قد اتسعتْ من حوله ، بعد أنْ كانت تضيق به ـ أو يضيق بها ـ ، ويحسبُ أنَّ العالَمَ كلَّه كان ينتظرُ بزوغَ هلال العيد ، فغمرتْه الفرحةُ برؤيته .

* وإذا ذُكر عام الجماعةِ ، فلا بدَّ أنْ يُذكرَ معه سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ ؛ لأنَّ جماعةَ المسلمين التفَّتْ حوله ، ورضيتْ به أميراً عليها ، وابتهج خيارُ المسلمين بهذه الوحدة الجامعة ، بعد تلك الفرقة المشتتةِ التي استمرت حيناً من الدَّهر تعصفُ بالنَّاس ذاتَ اليمينِ وذات الشِّمال ، وظلَّتِ الفرقةُ تعيثُ بالأهواء ، وتفرِّقُ الكلمة ، وتزرع الضَّغائن في النُّفوس ، إلى أن قيَّضَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهذه الفتنة أنْ تُدفنَ وتزول ، ومن ثَمَّ أجرى الله سبحانه الصُّلح على يدي سيّدنا الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ ، والتأمت وحدة المسلمين ، وبهذا تحققتْ نبوءةُ رسولِ الله ﷺ في حفيده الحسَن في الحديث الذي رواه أبو بكرة قال :

---

(١) كان عام الجماعة في سنة (٤١ هـ) .

رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه وهو يقول :

« إنَّ ابني هذا سيِّدٌ ، ولعلَّ اللهَ أنْ يصلحَ به بين فئتين من المسلمين »[1] .

* وأصلح الله عزَّ وجلَّ بالحسن بين أصحاب عليّ ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ ؛ إلا أنَّ هذا الصُّلح لم يؤثرْ شيئاً في تلك القلوب التي أُسِسَتْ على حبِّ سيِّدنا عليٍّ ـ رضوان الله عليه ـ ، وكان معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ يعرفُ هذا من محبّي عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ رجالاً كانوا أو نساء ، فقد روى صاحب « العقد الفريد » قال :

قدم أبو الطُّفيل على معاويةَ ، فقال له : ما بلغ من حبِّك لعليٍّ ؟ .

قال : حبُّ أمِّ موسى لموسى .

قال : فما بلغ من بكائك عليه ؟ .

قال : بُكاء العجوز الثَّكلى ، والشَّيخ الرَّقوب ، وإلى الله أشكو التَّقصير .

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٧/٧) في فضائل أصحاب النَّبيِّ ﷺ : باب مناقب الحسن والحسين ؛ وفي الصُّلح : باب قول النَّبيِّ ﷺ للحسن : « إنَّ ابني هذا هو سيِّد ... » وفي الأنبياء : باب علامات النُّبوَّة في الإسلام ، وفي العتق : باب قول النَّبيِّ ﷺ للحسن : « إنَّ ابني هذا لسيِّد ..... » والترمذي (٣٧٧٥) والنَّسائي (١٠٧/٣) وأبو داود (٤٦٦٢) وأحمد (٣٨/٥ و ٤٤ و ٤٩ و ٥١) . وقد كان الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ كما وصفه الإمام الذَّهبيُّ : سيِّداً ، وسيماً ، جميلاً ، عاقلاً ، رزيناً ، جواداً ، ممدحاً ، خيِّراً ، ديِّناً ، ورعاً ، محتشماً ، كبير الشَّأن ـ رضي الله عنه ـ .

* هذا ولم تكن النساء بمعزلٍ عن المشاركة في الأحداث التي مرّتْ في صَدْر الإسلام وخلال العصر الرّاشدي ، وخصوصاً في خلافة عليّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ ؛ فقد كان للمرأةِ نصيبٌ في ذلك التّاريخ ، وكان لها كذلك صوتٌ مسموعٌ ورأيٌ نافذٌ في الخلافة والخلفاءِ والأمراءِ والولاة ، وعقيدةٌ تنافحُ عنها بالسّنان إنِ استطاعت أو باللسان ، وتردّدَ في الجو الاجتماعي ـ عصر ذاك ـ أصواتٌ نسائية كان لها الأثر البالغ في ميادين القتال ، والأثر البليغ في ميادين البلاغة وفي مجالس معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ .

* وقد عرفنا عدداً من النّساء الوافداتِ على معاويةَ ، وهنّ كثيرات منهن : سودةُ بنت عمارة ،وأمُّ الخير بنت الحُريش البارقيّة ، وأمُّ سِنان بنت خَيْثَمَة وغيرهنّ ممن أمتعن الأسماعَ وملأن الدُّنيا ، وشغلن النّاس ، وأخذْنَ حيّزاً من صفحات التّاريخ سجّلْنَ فيها آثارهنّ التي خلّدت ذكْراهُنّ على مرّ الأيام .

* واليوم نتعرّف أخبارَ واحدة ـ من هؤلاء ـ لا تقلُّ مكانة وشهرة عمن سبقْنَها ، ألا وهي الزّرقاء بنتُ عديّ بن مرّةَ الهمدانيّة الكوفيّة ، وهي من ذواتِ الشّجاعة والبسالة ، وممن خصصتْ لها البلاغة ، وانقادتْ لها مقاليدُ الكلام ، وكان لها مع معاويةَ خبرٌ دلّ على مكنونِ فصاحتها وشجاعتها .

* * *

---

(١) تاريخ دمشق (ص ١٠٩) ، والأعلام (٤٤/٣) ، وفيه : الزرقاء بنت عدي بن غالب ـ بدلاً من مرة ـ .

أيُّكم يحفظُ كلامَ الزَّرْقاءِ :

* كانَ مجلسُ معاوية بدمشقَ يجمع عدداً من وجوه بني أميّة ، ومنْ غيرهم ممّنْ عُرِفَ بالمكانة والأصالة والصّدارة بين النّاسِ ، فلا خيرَ فيمن صدّرته المجالسُ إذا لم يكن منْ سادةِ النّاس وأشرافهم .

* وكان معاوية يسمر مع هؤلاء الأعلام يتذاكرون ويتذكّرون من الأخبار ـ أحياناً ـ ما مضى منها وغبر . وذات ليلة سَمرَ مع جماعةٍ من وجوه قومه ، فذكر كلاماً للزّرقاء بنت عدي الكوفيّة ، وما كانت تنثُره من حِكَمٍ بين معترك الصّفوف ولمعان الأسنة والسّيوف ، كانت تقول :

إنّ المصباح لا يضيءُ في الشّمس ، والكوكب لا يبصر في القمر ! ... مَن استرشَدَنا أرشدناه .. .. ثم طافت بمخيّلته صورتها

---

(١) كان للخلفاء والولاة مجالسٌ يجتمع إليهم فيها أهل شوراهم ، كما كانت لهم مجالس عامة يأذنون للنّاس في الدُّخول عليهم . رُوي أنّ سيدنا عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ كتب إلى أبي موسى الأشعريّ وهو بالبصرة قال : بلغني أنّك تأذنُ للنّاس جمعاً غفيراً ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فأذنْ لأهل الشّرف ، وأهل القرآن والتّقوى والدّين ، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة .
ومع أنّ هذه المجالس تُعدّ جزءاً من الحياة السّياسية ، وتدخل ضمن رعاية مصالح النّاس ، فإنّ المواكب والوفود إليها وما كان يتخيّره هؤلاء في هذه المناسبة من الملابس والمراكب ، ونوالهم الرّفد والجوائز والهبات لهم ولقومهم ، كان مدار حديث المجتمعات والمجالس ، فضلاً عن أنّ هذه المجالس كانت تشيرُ إلى مراتب النّاس ومكانتهم في المجتمع . وإلى ذلك أشار عمر بن الخطاب في كتابه الآنف الذّكر إلى أبي موسى الأشعريّ .
وقيل : كان معاويةُ بن أبي سفيان يأذنُ للأحنف بن قيس التّميمي ، ثم لمحمّد بن الأشعث . وكان هذه المجالس قيمتها العلميّة والأدبيّة والتّاريخيّة .

وهي راكبةٌ على جملٍ أحمرَ عالٍ ، وهي تخطب في بني همدان قومها ، وكيف كانت تؤجج حماستهم ، وتحضُّهم على النِّزال في يوم صِفّين .

وانتبه معاوية من استغراقه الذي لم يدمْ لحظات ، وعرض ما يدور بخلده على جلسائه ، وتذاكر معهم نُتَفاً من كلامها ، فإذا بعددٍ من الحاضرين يحفظون كلامها ، وبعضهم لا تزالُ في جعبته أثارةٌ من قولِ الزِّرقاء يومئذ ، عندها توجّه إليهم قائلاً : أتذكرون الزرقاء بنت عدي الكوفية ؟ .

قالوا : نعم يا أمير المؤمنين .

فقال : أيُكم يحفظُ كلامها يوم صِفّين ؟ ! .

فأجاب بعضُ الحاضرين : كلّنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، ولا نُغادِرُ معناه ، وما كانت تقوله يوم ذاك .

وصمتَ معاوية ـ رضي الله عنه ـ وهو يتفرّس في وجوه القوم ، ثم قال لهم : إذن ، فما تشيرون عليَّ في أمْرِ الزَّرقاء ؟ فقال بعضُهم : نشيرُ عليك بقتلها .

فقال معاوية بهدوء : بئس الذي أشرتم به عليَّ .

ثم تابع مستدركاً : أيحسُنُ بمثلي أنْ يتحدثَ النّاس عليَّ أنّي قتلتُ امرأة بعد أنْ مَلَكْتُ ، وصار الأمر إليَّ ، لا واللهِ ، لا يكون هذا أبداً .

ولم ينتظرْ معاوية ـ رضي الله عنه ـ حتى يتنفّس صُبْحُ تلك الليلة بل دعا كاتِبَه في الليل ، وأمره أنْ يكتب إلى واليه بالكوفة ، أنْ أوفِدْ عليَّ

الزَّرقاء بنت عديّ الهمدانية مع ثقةٍ من محارمها ، وعدّةٍ من فرسان قومها ؛ وأمره أنْ يمهّدَ لها وطاءً ـ فراشاً ـ ليّناً ، ويسترها بستر خصيف ـ غليظ ـ ، ويوسعُ لها في النَّفقةِ .

فلما وردَالكتابُ إلى عامل الكوفة ، ركبَ إلى الزَّرقاء ، وأقرأها كتاب معاوية ـ رضي الله عنه ـ ؛ فقالت : أمّا أنا فغيرُ زائغةٍ عن طاعةِ أمير المؤمنين ، وإنْ كان جعل المشيئة ـ الخيار ـ لي فإنّي لا أبرح عن بلدي هذا ، وإن كان حتْم الأمر ، فالطّاعة له وهو أولى به .

فقال الوالي : الأمرُ أمْر أمير المؤمنين .

عندئذ حملَها الوالي ، وأحسنَ جهازها ، ثمّ أحسن صحبتها ـ كما أمره معاوية ـ وسيّرها إلى دمشق مقرّ الخلافة ومناط الحكم .

* * *

الزَّرْقَاءُ وَمُعَاوِيَةُ :

* لما قدمتِ الزَّرقاءُ على معاوية بدمشقَ ، استأذنت عليه فأذن لها ، فدخلت وأفشتْ السَّلام على مَنْ كان .

فقال لها معاوية : وعليك السَّلام ورحمة الله وبركاته ، مرحباً بك وأهلاً ، قدمتِ خيرَ مَقْدم قَدِمَهُ وافدٌ ، كيف حالك يا خالة ؟ وكيف كان مسيرك ؟ .

قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله عليك النّعمة ، فقد كان مسيري خير مسير ، إذْ كنتُ ربيبة بيت ، أو طفلاً ممهّداً له .

قال : بذلك أمرتُهم .

وبعد أنِ اكتملَ المجلسُ ، وأخذ كلُّ واحد مكانه ، قال لها معاوية : هل تعلمين لم بعثتُ إليك يا خالة ؟ قالت : سبحان الله ـ يا أمير المؤمنين ـ وأنّى لي بعِلْم ما لم أعلم ، وهل يعلمُ ما في القلوب إلا الذي خلقها ؟ ! قال : بعثتُ إليك لأسألك ؛ هل أنتِ الرّاكبة الجمل الأحمر يوم صِفّين ، وأنت بين الصَّفَّيْنِ تُوقدين الحرب ، وتحضّين على القتالِ ، وتخطبينَ في النّاس ؟ فما حملك على ذلك ؟ .

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرّأسُ ، وبُتِرَ الذَّنَبُ ، ولن يعود ما ذهب ، والدّهر ذو غِيَـر ـ أحداث ـ ، ومَنْ تفكّر أبصر ، والأمر يحدثُ بعده الأمر .

فقال لها معاوية : فهل تحفظينَ كلامك يوم صِفّين ؟ .

قالت : لا واللهِ ، لا أحفظه ولقد أُنسيته ، فإنّي قد ﴿ وهنَ العظم مني واشتعلَ الرّأس شَيباً ﴾ [مريم : ٤] ﴿ وقد بلغتُ من الكبر عتياً ﴾ [مريم : ٨] وقد ولّتْ تلكَ الأيامُ يا أمير المؤمنين .

قال : لكنّي أحفظه ، لله أبوك يا زرقاء ؛ لقد سمعتك يومئذ حين كنتِ تقولينَ : أيّها الناس ، ارعوا وارجعوا ، قد أصبحتم في فتنةٍ غشتكم جلابيب الظُّلم ، وحادت بكم عن قصْدِ المحجّةِ ـ الطّريق ـ فيا لها من فتنةٍ عمياءَ صمّاءَ ، لا يُسمعُ لقائلها ، ولا يُنقادُ لسائقها .

أيها الناس : إنّ المصباحَ لا يضيءُ في الشّمس ، والكوكب لا يبصر في القمر ، وإنّ البغل لا يسبقُ الفرس ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد .

ألا مَنْ استرشَدَنا أرشدناه ، ومَنْ سأل أخبرناه ؛ إنَّ الحقَّ كان يطلبُ ضالته فأصابها . فصبراً يا معاشرَ المهاجرين والأنصار ، فكأنْ قدِ اندملَ شعب الشَّتات ، والتأمتْ كلمة العدل ، وغلب الحقّ باطله ، فلا يعجلن أحدٌ فيقول : كيف ؛ وأنّى ؟ ﴿ ليقضيَ اللهُ أمْراً كانَ مفعولاً ﴾ [الأنفال : ٤٤] ، ألا وإنَّ خضابَ النِّساء الحنّاء ، وخضاب الرِّجال الدِّماء ، والصَّبرُ في خير الأمور عواقب .

إيهاً ـ حسبك ـ إلى الحرب قُدماً غير ناكصينَ ، ولا متناكسينَ وهذا يومٌ له ما بعده[1] .

وتوقّف معاويةُ عن الكلام ، بينما كان المجلس بأكمله ، قد غَرِقَ في صَمْتٍ وهدوء يسمعُ لما يقوله ويعيده معاوية من كلام الزّرقاء ـ وهي أمامه ـ ولا تحفظه .

* * *

اذْكُرِي حَاجَتَكِ :

* بعد أنْ سَرَدَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ خطبة الزّرقاء وكلامها يوم صِفّين ، قال لها : يا زرقاء ، لقد شركتِ عليّاً في كلّ ما فعل ! .

فقالت : أحسنَ اللهُ بشارتَك يا أمير المؤمنين ، وأدامَ سلامتك ، فمثلك ـ والله ـ يسُرّ بخيرٍ وسرّ جليسه .

فقال لها متعجباً : أوقد سرَّكِ ذلك يا زرقاء ؟ .

---

(١) عن تاريخ دمشق (ص ١١٠ و ١١١) ، والعقد الفريد (٢/١٠٦ و ١٠٨) ، وأعلام النساء (٢/٣٣ و ٣٤) بشيء من التصرف .

قالت : نَعَمْ واللهِ لقد سرَّني قولك ، فأنّى لي بتصديقِ الفعْلِ ؟ .

فضحكَ معاوية ـ رضي الله عنه ـ وقال لها :

واللهِ يا زرقاء ، لوفاؤكم لعليٍّ بعد موته ، أعجب إليَّ من حبِّكم له في حياتِه .

ثم ساد الصَّمتُ في المجلس ، وألقى معاوية ـ رضي الله عنه ـ نظراتٍ فاحصة في وجوه الحاضرين ؛ فألفاها قد أُعجبت بفصاحة هذه المرأة البدويّة التي تتحدثُ دون خوف أو تهيّب ، لا ؛ بل تقولُ رأيها في جرأةٍ وصراحةٍ تامّةٍ . عندئذ قال لها معاوية ـ رضي الله عنه ـ : والآن ، اذكري حاجتَك يا خالة .

وأجابته بكلام موجز يجمعُ بين الفصاحة والمديح فقالت : يا أمير المؤمنين : إنّي امرأة آليتُ ألا أسأل أمراً أعنتُ عليه شيئاً .

فأعجب معاوية ـ رضي الله عنه ـ بإجابتها وسُرَّ لفصاحتها وقال : صدقتِ يا زرقاء .

ثم أمرَ لها وللذين جاؤوا معها بجوائزَ وكساء ، وأحسن عطاءها ـ خاصة ـ وردّها مكرمة بعد أنْ أقطعَها ضيعةً ـ في الكوفة ـ أغلّتُها أول سنة ستة عشر ألف درهم[1] .

* ويصمتُ التّاريخُ بعد هذه المحاورة ، فلم يعدْ ينقل لنا من أخبار الزّرقاء شيء ، إلا أنّه نعاها في سنة ستين من الهجرة وقال : إنّها توفيت ودُفنت في الكوفة .

* وبعد ، فهذه امرأة فريدة بين نساء عصر التّابعين ، كان صوتها مسموعاً في بلاط الخلفاء ، وتركت حديثاً مدوياً في أسماع التّاريخ إلى أنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها .

* رحم الله الزّرقاء بنت عدي ، وأنْعَمَ عليها مع الذين أنْعَمَ عليهم .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الرباب بنت امرئ القيس

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٥)

الرّباب بنت امرئ القيس

* قال المؤرخ هشام الكلبي :

كانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن .

* وقال زوجها الحسين بن علي :

لعمرك إنني لأحب داراً
تحلّ بها سُكينة والرباب
أحبهما وأبذل جلّ مالي
وليس للائمي فيهما عتاب
ولستُ لهم وإن عتبوا مطيعاً
حياتي أو يغيّبني التراب

الرَّبَابُ بنْتُ امْرئِ القَيْسِ

ابْنَةُ سَيِّد القَوْم :

* في المسجد النَّبوي الشَّريف بالمدينة المنوّرة ، جمعَ المجلسُ أميرَ المؤمنين عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ ، وعليّ بن أبي طالب ، وولديه الحسن والحسين ـ رضي الله عنهم ـ وثلّة من الصَّحابة الكرام ، ونجباء الإسلام وبعض أبناء المسلمين ، وكان الحديثُ يدور حول انتصاراتِ جيوش المسلمين في الشّام .

* في تلك الآونة ، دخل رجل غريبٌ عن المدينة ، تبدو عليه سمات الشَّرف ومظاهر السِّيادة ، فتخطّى رقاب النَّاس حتى قام بين يدي عمر ـ رضي الله عنه ـ ، فحيّاه بتحيةِ الخلافة ، فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ : ممّنْ أنتَ ؟

قال الرَّجل في أدب وتهيُّب : أنا امرؤ نَصْرانيّ أُدعى امرؤ القيس بن عدي الكلبيّ .

حينئذ عرفه عمر ـ رضي الله عنه ـ ، وعرّف جلساءه بأنّه سيّد بني كلب ، ثم توجّه بالسُّؤال إلى امرئ القيس وقال له : ما تريد ؟

قال : أريد الإسلام يا أمير المؤمنين .

فعرضه عليه عمر ، وفتح الله على بصيرته فأسلم وقَبِل ، وأكرمه الله

عزَّ وجلَّ بالإسلام ، وأكرم سيّدنا عمر بأنْ دخلَ امرؤ القيس الكلبيّ الإسلام على يديه ، فإنَّ ذلكَ خير عند عمر من حُمُر النَّعَم[1] ، أو مما طلعت عليه الشَّمس .

* ثم إنَّ سيدنا عمر توسم خيراً في امرئ القيس ، وتفرَّس بملامحه ، فألفاه من الرِّجال الذين يُعتمد عليهم ، عندئذ دعا له برمْحٍ ، وعقد له لواء على مَنْ أُسْلِم بالشَّام من قبائل قضاعة ، فانصرف الرَّجل واللواء يرفرف فوق رأسه ، وخرج من باب المسجد وغرّةُ الإسلام بين عينيه .

* وأخذ العجب عوف بن خارجة المُريّ ــ وكان يومئذ بالمجلس ــ فقال : واللهِ ؛ ما رأيت رجلاً لم يُصَلِّ لله عزَّ وجلَّ ركعةً قطّ أُمِّرَ على جماعة من المسلمين قبله[2] ! .

* كان الرجل أميراً من أمراء عمر ، وليس له سابقة في الإسلام ، ولكنَّها عبقرية عمر وفراسته التي لا تخيب ؛ وهذا ما دعا سيّدنا علياً ــ رضي الله عنه ــ لأنْ ينهضَ ومعه الحسن والحسين ــ رضي الله عنهما ــ ، ثم أدرك الرَّجل ، فاستوقفه وحياه ، وأمسك بثيابه وقال له : يا عمّ ، أنا عليُّ بن أبي طالب ، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره ؛ وهذان ــ وأشار إلى الحسن والحسين ــ ابناي من ابنته فاطمة الزَّهراء .

وَجَمَ الرَّجل قليلاً لهذه المفاجأة ، ثم سرعان ما سرتْ علائم السُّرور في وجهه ، وأقبل على سيّدنا علي وولديه ــ رضي الله عنهم ــ ، ورحَّب

(١) « حمر النعم » : النعم : المال السائم ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل . وحمر النعم : أنفس أموال العرب .

(٢) انظر الأغاني (١٤/١٥٨) بتصرف يسير .

بهم وابتسم في وجوههم .

فقال له عليٌّ : قد رغبنا في صهرك فأنكحنا .

وسَرَتْ لحظاتٌ استجمع امرؤ القيس خلالها كلّ الفضائل لهؤلاء الأعلام الذين يقفون أمامه ، والذين يمثلون آل بيت النَّبي ﷺ ، وعرضت أمام مخيلته بناته الثَّلاث وهن : الحياة ، وسلمى ، والرُّباب ، وبفراسته استطاع أنْ يتبين لمن تصلح كلّ واحدة منهن ، ولم يَطُل استغراقه في التفكير ، فقال :

مرحباً بابن عم رسول الله ؛ قد أنكحتُك يا عليّ الحياة بنت امرىء القيس . ثم التفتَ إلى السِّبْطين الشَّريفين الحسن والحسين وقال :

قد أنكحتك يا حسن سلمى بنت امرئ القيس ؛ وأنكحتك يا حسين الرَّباب بنت امرئ القيس .

ثم انصرف بعد أنْ أصهر إلى أكرم بيت في الدّنيا .

* ومنذ ذلك اليوم حلّقت شهرة الرَّباب بنت امرئ القيس الكلبيّة[1] عالياً عالياً في سماء المكرمات ، إذا اقترنت بريحانةِ رسول الله ﷺ ، ودخلت أشرفَ بيتٍ في الدّنيا وفي قريش ، وقد غُذِّي هذا البيت بلبابِ الآداب النَّبوية ، وازدان بشرفها وسؤددها .

* * *

منْ خِيَارِ النِّسَاءِ :

* أجمع كلُّ مَنْ عرف الرَّباب بنت امرئ القيس أنَّها من خيار

(١) نسب قريش (ص ٥٩) ، ونوادر المخطوطات (٦٤/١) ، والأعلام (١٣/٣) .

النّسوة ، ومن فضليات التّابعيات اللاتي تركن مجداً مؤثلاً من الفضائل والوفاء والإخلاص . فقد كانت الرّباب فتاة تبدو عليها ملامح الذّكاء والفطنة ، وتسيلُ على لسانها نفحات من الشّعر ورقائقُ من الأدب ، وقد حباها الله عزّ وجلّ مسحةً من الوضاءة والجمال ، وجمعت من كلّ فَضْلٍ منَ الفضائل بطرف ، مما جعلها أثيرةً لدى زوجها الحُسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ .

* وأثمر زواج الحُسين والرّباب ثماراً صالحة ، فولدت له عبد الله بن الحسين ـ وبه يكنى ـ ثم ولدت له آمنة التي لقبتها باسم سكينة[1] ، وقد اشتهرت بهذا الاسم في عالم النّساء .

* وقد وثّقتْ هذه الولادة عرى المحبّةِ بين الزّوجين ، وكان الحسين ـ رضي الله عنه ـ يُنزلُ الرّباب من قلبه مكاناً رحباً ، فكان يَسْكُن إليها سكونَ المودة والرّحمة ، ويهتمّ بها اهتماماً جعل بعض المقرّبين يعاتبه في ذلك عتاباً رقيقاً ؛ ولكنّ الحسين ـ رضوان الله عليه ـ لم يستمعْ إلى عتابِ أحد ، ولم يصْغِ لما يقوله الأقربون في هذا الميل وهذا الأنس إلى الرّباب وابنتها ، وبلغ من شدّة حبّهِ للرّباب ولابنتها سكينة الجميلة أنْ كان يحبُّ لحبهما الدّيار التي تقيمان فيها ، وقال :

لعمركَ إنني لأحبُّ داراً
تحلُّ بها سُكينةُ والرّبابُ
أحبُّهما وأبذلُ جُلَّ مالي
وليس للائمي فيها عتابُ

(١) نسب قريش (ص ٥٩) ، واقرأ سيرة سكينة بنت الحسين في هذا الكتاب .

ولستُ لهـم وإنْ عتبـوا مطيعـاً
حيـاتي أو يغـيبـني التُّـراب[1]

وفي الرَّباب وابنته سكينة يقول أيضاً :

كأنَّ الليـلَ مـوصـولٌ بـليـلِ
إذا زارتْ سـكـيـنـةُ والرَّبـابُ[2]

* ولم تكن مبالغةُ الحسين في الاهتمام بالرَّباب لتأتي من فراغ ، فقد كانتِ الرَّباب ـ رحمها الله ـ من النِّساء ممن يعرفن قَدْرَ الأزْواج وحقوق الزَّواج ، ونشـأت على أكمـل تربيـة ، وصقـلت حُسْنَ تربيتها بالتَّأسي بأخلاق البيت النَّبوي الشَّريف ، تلك الأخلاق التي تجعل صاحبها في مقام رفيع .

* * *

منْ سَيِّداتِ الرِّثاء :

* في كربلاء بالعراق ، كانتِ الرَّباب بنت امرئ القيس مع زوجها الحسين ، ومعها عدد من نسوة بني هاشم منهن : زينب بنت علي أخت الحسين ، وابنتاه سكينة وفاطمة ، وغيرهن من العقائل الكريمات .

---

(١) نسب قريش (ص ٥٩) ، ومقاتل الطالبيين (ص ٩٤) ، والبداية والنهاية (٢١١/٨) .

(٢) أي إذا زارت قومها ، وهم بنو عليم بن جناب بن كلب ، فتكون أيامه كلها ليالٍ موصولة ببعضها بعض ، فإذا عادت الرباب وسكينة ، انقشعت الظلمة وتبسم الفجر .

ونظر الحسين إليهم مليّاً ثم قال يخاطبهن : يا أختاه ، يا أمّ كلثوم[1] ، ويا زينب[2] ، وأنت يا سكينة[3] ، وأنت يا فاطمة[4] ، ثم قال لزوجه الرّباب : وأنت يا رباب إذا أنا قُتِلتُ فلا تشقّ إحداكن عَلَيّ ، ولا تخمش وجهاً ، ولا تَقُلْ هجراً .

وأطرقن جميعاً واجماتٍ ، ومن ثَمَّ أوصى الرّباب بابنته سكينة ، وعلى أرض كربلاء ، استشهد الحسين ـ رضي الله عنه ـ في المحرم سنة (٦١ هـ) ، وملأتِ الرّباب الدُّنيا برثائها له . وأحبُّ أنْ نقرأ سوياً رثاءَ الرّباب للحسين ، فسوف نرى أنّه صورة صادقة للزوجة الوفية التي تحملُ كلَّ معاني الوفاء لزوجها الشّهيد ؛ الذي كان مجمعاً لكلِّ فضيلة ، فهل تنساه ؟ :

إنَّ الذي كان نوراً يُستضاء به
بكربلاء قتيل غير مدفونِ
سِبْطَ النَّبيّ جَزَاكَ اللهُ صالحةً
عنَّا وجُنِّبتَ خُسرانَ الموازينِ
قد كنتَ لي جبلاً صعباً ألوذُ به
وكنتَ تصحبُنا بالرَّحم والدِّينِ
مَنْ لليتامى ، ومَنْ للسَّائلين ، ومَنْ
يُغني ، ويأوي إليه كلُّ مسكينِ[5] ؟

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) اقرأ سيرهن في هذا الكتاب ، ففي سيرهن أخبار قيمة ـ رضي الله عنهن ـ .

(٥) شاعرات العرب (ص ١٢٨) .

الرَّباب من خيار النِّساء وأفضلهن .

قال الزِّركلي ـ رحمه الله ـ في الأعلام[1] : وبقيتِ الرَّباب بعد الحسين سنة لم يظلّها سقفُ بيتٍ حتى بليتْ ، وماتتْ كَمداً ـ رحمها الله ـ .

* وحدّدَ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ وفاةَ الرَّباب في سنة (٦٢ هـ) وقال : وفيها توفيتِ الرَّبابُ امرأة الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ[2] .

* وهكذا فقد عاشت الرَّباب بعد زوجها الحسين قرابة عام ، ثم توفيت حزناً عليه ، وعلى ابنها عبد الله الذي قُتل صغيراً مع أبيه .

* ولئن غيَّبَ التُّراب جسمَ الرَّباب ، فلقد ظلت ذكراها خالدة على مرِّ الأيام ، لتكون قدوةً في الوفاء لكلِّ النِّساء . فرحم الله الرَّباب ، ورضي عن زوجها ، وجعلها معه في الجنة .

* * *

(١) الأعلام (٣/١٣) ، وانظر الخبر بشكل أوسع في الكامل لابن الأثير (٤/٨٨) .
(٢) البداية والنهاية (٨/٢٢٠) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

معاذة بنت عبد الله

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٣)

معاذة بنت عبد الله

* قال يحيى بن معين :

معاذة : ثقة حُجّة .

* عابدة ، زاهدة ، فقيهة ، لها أقوال مشهورة ، صابرة ، شاكرة لله عز وجل .

مُعَاذَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللهِ العَدَوِيَّة

مُنَاجَاةٌ :

* « يا نفس ، النَّومُ أمامك ، لو قدمتِ لطالت رقدتك في القبر على حسرة أو سرور » .

بمثلِ هذه العبارة ، كانت معاذة بنت عبد الله العدويّة البصريّة أمّ الصهباء[1] ، تخاطب نفسها إذا ما غلبها النّوم وهي غارقةٌ في عبادتها ومناجاتها لله عزَّ وجلَّ .

* كانت معاذة من النّساء التّابعيات ذواتِ الفضل والمكانة ، نشأت قريبةً من ينابيعِ الصّحابة الكرام ، تنهلُ من معين عِلْمِهم الصّافي ؛ الذي أخذوه عن رسول الله ﷺ .

* وقد تخرّجت معاذة من مدرسة أمّ المؤمنين عائشة وعليّ بن أبي طالب وهشام بن عامر ــ رضي الله عنهم ــ ، حيث رأتهم وروت عنهم .

* كما حدّث عنها رؤوس العلم والزّهد في عصرها منهم : أبو قِلابة الجرمي ، وإسحاق بن سويد ، وأيوب السّختياني[2] وآخرون .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥٠٨/٤) ، وطبقات الشعراني (٦٥/١) ، والأعلام (٢٥٩/٧) .

(٢) أيوب بن أبي تميمة كيسان السّختياني ، أبو بكر التّابعيّ البصريّ ، ثقة ثبتٌ حجةٌ ، =

وإذا أردت أنْ تعرفَ مقدار مكانتها في عالم الحديث والعلم ، فاعلم أنَّ حديثها محتجٌّ به في الصِّحاح كلِّها ، وقد وثّقها شيخ المحدثين يحيى بن معين ـ رحمه الله ـ .

* وقد بلغتْ معاذةُ ـ رحمها الله ـ مبلغاً عظيماً في التَّفقُّهِ بالدِّين ، والنُّسك والعبادة ، ونهلت من معينِ القرآن الكريم والحديث الشَّريف شيئاً مباركاً ، جعل الحكمة تجري على لسانها ، وتنبعث من قلبها لتحتلَّ قلوبَ الآخرين وتستقرّ في نفوسهم ، وتصقل صَدأ قلوبهم .

* وكانت ـ رحمها الله ـ مولعة بقرآن الفجر الذي تشهده الملائكة ، إذ تصبح وتمسي على قراءة القرآن الكريم وترتيله ، وقلبها يلهجُ بذكر الله عزَّ وجلَّ ، ولم يكنْ يشغلُها عن هذا أيّ شيء حتى في يوم زفافها .

* * *

زَوَاجُهَا :

* زوجُ معاذة العدويّة هو صِلَةُ بنُ أَشْيَم ، أبو الصَّهباء العدويّ البصريّ ، الزّاهد العابد ، السَّيّد القدوة ، التّابعيّ الجليل ، صاحب الكراماتِ الثّابتة . وكلا الزَّوجين بَحْرٌ في العِلْمِ والفقه ، وعلمٌ في الورع والزّهد ، وكان لزواجها قصة تؤنس النّفوس ، وتجلو القلوب لما فيها من

= سيّد فقهاء عصره ، ولد سنة (٦٦ هـ) ، وكان من النّساك الزّهاد ، ومن كبار الفقهاء العباد ، ومن حفاظ الحديث الشّريف ، روي عنه نحو (٨٠٠ حديث) ، توفي سنة (١٣١ هـ) وله (٦٥ سنة) ـ رحمه الله تعالى ـ .
(تقريب التهذيب : ٨٩/١) ، و (الأعلام : ٣٨/٢) .

طِيْبِ الحديث الذي ظلّ النّاس ـ عصر ذاك ـ يتداولونه فيما بينهم حيناً من الدّهر ، ومن ثَمّ نقلوه إلى غيرهم ليبقى خالداً إلى ما شاء الله سبحانه وتعالى .

فلنشهد أحداث هذا الزّواج المبارك ، لهذين العلَمَيْن الكريمين .

• لما كان يوم زفاف معاذة العدويّة ، وحينما أُهديت إلى زوجها صِلَة بن أشيم ، جاء ابنُ أخي صلة ، فمضى به وأدخله الحمّام ، ثم ألبسه أجمل الثّياب ، وأدخله على معاذةَ في بيتٍ يتضوع بالطّيب ، وتنبعثُ منه أجمل روائح البخور والعطور ، وقد هُيّىء البيت كأجمل ما تكون البيوت .

* ولما صار الزّوجان معاً في البيت ، ألقى صلة السّلام على معاذةَ ، ثم قام يصلي ، فقامت معه فصلّت أيضاً ، واستغرقا في الصّلاة ، فلم يزالا يصليان ويصليان حتى وافاهما عمود الفجر ، وتنفّسَ الصُّبح ، ونسيا أنّهما في ليلة الزّواج .

* وفي الصّباح أتاه ابن أخيه يتفقّدُ أحواله ، فعلم أنّه ظلّ يُصلي حتى أسفر الصُّبح ، فقال لعمّه : أي عمّ ، أُهديتْ إليك ابنة عمك الليلة فقمتَ تصلي وتركتها ؟ .

فقال صلة : يا بن أخي ، إنّك أدخلتني أمس بيتاً أذكرتني به النّار ، ثم أدخلتني بيتاً أذكرتني به الجنّة ، فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحتُ .

---

(١) عن صفة الصفوة (٣/١٤٤ و ١٤٥) بتصرف ، وانظر ربيع الأبرار (٥/٢٨٥) ، والبداية والنهاية (٩/١٨) .

* على مثل هذا النهج من العبادة ، تابعتْ معاذةُ وزوجها حياتهما في طلب مرضاة الله عزَّ وجلَّ ، وقد رسمت معاذة صورةً حيَّة عن عبادة زوجها فقالت : كان أبو الصَّهباء يصلي حتى ما يستطيع أنْ يأتي فراشه إلا زحفاً[1] .

* وحدث ابن شودب قال : قالت معاذة العدويّة : ما كان صلةُ يجيء من مسجدِ بيته إلى فراشه إلا حبواً ، يقوم حتى ما يقرّ في الصَّلاة[2] .

* وقد وصفته أيضاً ، ووصفت أصحابه الذين تعاقدوا على محبّة الله عزَّ وجلَّ ، فقالت : كان صلةُ وأصحابه إذا التقوا عانق بعضهم بعضاً .

* وكانت ـ رحمها الله ـ تأسي بزوجها في عبادته حتى عدت إحدى النِّساء اللاتي يُضرب المثل بهن في العبادة .

* * *

مِنْ فَرَائِدِ أَقْوالِها :

* المؤمن المخلصُ لله عزَّ وجلَّ منْ أطيبِ النَّاسِ عيشاً ، وأنعمهم بالاً ، وأشرحهم صدراً ، وأسرّهم قلباً ، وقد كانت معاذة ـ رحمها الله ـ من المؤمنات الورعات ، ومن النَّاسكات المتزهدات إذ تحيي الليل كلّه في العبادة ، فجرتِ الحكمةُ على لسانها جريان السَّلسبيل .

---

(١) الطبقات (٧/١٣٦) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٤٩٧) .
(٢) المعرفة والتاريخ للبسوي (٢/٧٩) .

* وقد أُثرت عنها أقوالٌ تشير إلى فصاحتها وبلاغتها وتمكنها من ناصية الكلام ، كما تدلُّ على مدى صلتها الوثيقة بالله سبحانه وتعالى ، فمن أقوالها :

عجبتُ لعين تنام ؛ وقد علمت طول الرّقاد في ظُلَمِ القبور .

* وكانت أقوالها لا تخلو من النّصيحة والتّحذير من الدّنيا ، فقد قالت لامرأةٍ أرضعتها :

يا بنية ، كوني من لقاء اللهِ عزَّ وجلَّ على حَذَرٍ ورجاء ، فإنّي رأيتُ الرّاجي له محقوقاً بحسن الزّلفى لديه يوم يلقاه ؛ ورأيت الخائف له مؤملاً للأمان يوم يقوم النّاس لربِّ العالمين .

* وفي تحذيرها من الدّنيا وعدم الغرور والرّكون إليها تقول : صحبتُ الدنيا سبعين سنة ، فما رأيتُ فيها قرّة عينٍ قطّ .

* * *

عِبَادَتُهَا وَصَلاتُهَا :

* كانت معاذةُ قد وهبت نفسها للعبادة والصّلاة ، فلا تكاد تخلو إلى نفسها إلا وهي على موعدٍ مع الصّلاة ، فقد كانت تحيي الليل كلّه بالصّلاة والذّكر والتّسبيح ، وكانت تصلي في كلّ يوم وليلة ستمئة ركعة ، وتقرأ من القرآن كلّ ليلة[1] ، فإذا جاء النّهار قالت :

---

(١) وصف الله عزّ وجلّ الزّوجات الصّالحات فقال : ﴿ فالصّالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حفظ اللهُ ... ﴾ [النساء : ٣٤] .
فالقانتات : هن الطّائعات .

هذا يومي الذي أموتُ فيه . فما تنام .

فإذا جاء الليل قالت :

هذه ليلتي التي أموتُ فيها . فلا تنام حتى تصبح ؛ فإذا غلبها النّوم ، قامت فجالت في الدّار تعاتبُ نفسها ، ثم لا تزال تدور إلى الصّباح تخاف الموتَ على غَفْلة ونوم[1] .

* وكان إذا هجم الشّتاء ببرده على النّاس ، تعمد معاذة إلى ليس الثّياب الرّقاق حتى يمنعها البرد من النّوم ، ولا تتكاسل عن العبادة والمناجاة ، وكان إلى جانبها زوجها يجتهد في عبادته أيضاً حتى ضُرب المثل بهما ، قال أبو السّوار العدويّ : بنو عديّ أشد أهل هذه البلدة ـ البصرة ـ اجتهاداً ، هذا أبو الصّهباء لا ينام ليله ولا يفطر نهاره ، وهذه امرأته معاذة ابنة عبد الله لم ترفعْ رأسها إلى السّماء أربعين عاماً .

* وكانت معاذة مع عبادتها ونسكها ، فقيهة عالمة ، قال عنها يحيى بن معين : معاذة ثقة حجة ، وذكرها ابن حبّان في الثّقات وأثنى عليها . أضفْ إلى ذلك أنّ حديثها مروي في الكُتُب السّتة محتجٌّ به .

* * *

صَبْرُها وشُكْرُها لله :

* في سَنَةِ ثنتين وستين للهجرة ، استشهد زوج معاذة وابنها في

= والحافظات للغيب : أي اللاتي يحفظن غيبة أزواجهن ، فلا يخنّه في نفس أو مال ، وهذا أعمّ ما تكون عليه المرأة ، وكانت معاذة العدوية من هذا الصنف ـ رحمها الله ـ .

سيجستان في قتال الترك ، ولما وصلها الخبر ، لم تلطم وجهاً ، ولم تمزّق ثوباً ، وإنّما صبرت واسترجعت[1] ، واجتمع النّساء عندها للتّعزية ، ولكنّ معاذة ـ رحمها الله ـ قالت لهن :

مرحباً بكنّ ، إنْ كنتنّ جئتنّ للهنّاء ، وإن كنتنّ جئتنّ لغيرِ ذلك فارجعن[2] .

* وعجب النّسوة من صَبْر معاذة ، وخرجن وهنّ يتحدثنّ عما آتاها الله عزّ وجلّ من حُسْن الصّبر ، وزادها ذلك الموقف في أعينهنّ مكانة ورِفْعَةً ، فأكرمْ بها وبموقفها ! .

* وحدثت أمُّ الأسود بنت زيد العدويّة ـ وكانت معاذة قد أرضعتها ـ فقالت :

قالت لي معاذة لما قُتل أبو الصّهباء وقُتل ولدها :

والله يا بنية ما محبتي للبقاء في الدّنيا للذيذ عيش ، ولا لروْح نسيم ، ولكن والله ما أحبُّ البقاء إلا لأتقرب إلى ربّي عزّ وجلّ بالوسائل ، لعلّه يجمع بيني وبين أبي الصّهباء وابنه في الجنّة[3] .

* وطبّقتْ معاذة هذا القول عملياً ، فلم تكن تمرُّ عليها ليلة إلا وهي تدعو ربّها خوفاً وطمعاً ترجو لقاءه وتأمل رحمته ، ومنذ أنِ استشهد

---

(١) « استرجعت » : قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) الطبقات (١٣٧/٧) ، والبداية والنهاية (١٨/٩) ، وسير أعلام النبلاء (٥٠٩/٤) .

(٣) مصارع العشاق (٢٠٨/١) .

زوجها لم تتوسدْ فراشاً حتى ماتت ، خيفة أنْ تشعر بليِنِ الفراش فتنسى ما عاهدت الله عليه من حسن الرجاء .

* * *

كَرَامَةٌ بَاهِرَةٌ لِمَعَاذَةَ :

* في كتابه « تهذيب التهذيب » أوردَ ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ كرامة باهرة لمعاذة ـ رحمها الله ـ تشير إلى مكانتها في عالم العبادة ، فذكر أنَّ رجلاً من أهل البصرة قال :

أتيتُ معاذة فقالتْ : إنّي اشتكيتُ بطني ، ـ وكان قد وُصِفَ لي نبيذ الجَرّ ـ فأتيتُها منه بقدح فوضعته فقالت :

اللهم إنْ كنْتَ تعلم أنَّ عائشةَ ـ أمّ المؤمنين ـ حدثّتني أنّ النّبيّ ﷺ نهى عن نبيذ الجرِ فاكفنيه بما شئتَ .

قال : فانكفأ القدحُ وأهريق ما فيه ، وأذهبَ الله تعالى ما كان بها .

* * *

وَفَاتُهَا :

* عاشتْ معاذة بعد وفاة زوجها أكثر من عشرين سنة ، وهي في كلّ يوم يمر عليها تستعدُّ للقاء الله عزّ وجلّ ، وتأمل أنْ يجمعَها بزوجها وابنِه في رحمتِه .

* وقد رُوِي أنّ معاذة لما حضرها الموت بكتْ ثم ضحكت فقيل

لها : مِمّ البكاء ، ومِمّ الضّحك ؟ ! .

قالت : أمّا البكاء الذي رأيتم فإنّي ذكرتُ مفارقة الصّيام والصّلاة والذّكر فكان البكاء لذلك .

وأمّا التّبسّم والضّحك فإنّي نظرتُ إلى أبي الصّهباء قد أقبل في صحن الدّار ، وعليه حلّتانِ خَضْراوان وهو في نَفَرٍ ، والله ما رأيتُ لهم في الدّنيا شبهاً ، فضحكتُ إليه ، ولا أراني بعد ذلك أدرك فرضاً .

فكان ذلك ، وتوفيت قبل أن يدخلَ وقت الصّلاة .

* وكانت وفاة معاذة سنة (٨٣ هـ)[1] .

* وبذلك طُويت صفحة امرأة من النّساء التّابعيات الصّالحات القانتات العابدات ، غير أنّ سيرتها لم يطوِها التّاريخ بل نشر فضائلها لتكون قدوة للنّساء .

* رحم الله معاذةَ العدويّة ، وأعاذها من النّار ، وجزاها خير الجزاء ، وألحقها بالصّالحين ، وصدق الله إذْ يقول : ﴿ ولمن خاف مقام ربّه جنتان ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥٠٩/٤) ، والأعلام (٢٥٩/٧) ، ومصارع العشاق (٢٠٩/١) وقيل توفيت سنة (١٠١ هـ) ـ رحمها الله ـ .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

سلمى بنت خصفة

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

www.dawahmemo.com

(٧)

سلمى بنت خَصَفة

• زوجها المثنى بن حارثة الشيباني ، ثم خلف عليها سعد بن أبي وقاص ، أخرجت أبا محجن الثقفي من محبسه ليخوض حرب القادسية ، ذات رأي حسن وفراسة .

سَلْمَى بنْتُ خَصَفَة

المَرْأَةُ والحَرْبُ :

* لم تكن نساءُ العربِ في صَدْر الإسلام قواعدَ بيوت ، بل كانت النِّسوة يخرجن مع المجاهدين فيحرضنهم على القتالِ والاستبسال ، ومنهنَّ مَنْ كُنَّ يداوين جرحاهم ، ويساعدنهم أثناء الحرب فيما يحتاجون إليه من قضاء حوائجهم .

* وكانت بعض النِّسوة قد خُضن ساحات الوغى بكلِّ بسالةٍ ورباطة جأش ، وحُزْنَ النَّصر المبين على الأعداء ، وقد وعتْ ذاكرةُ التَّاريخ عدداً من فُضليات المجاهداتِ ، منهن الصَّحابية الجليلة نسيبةُ بنتُ كعب[1] ـ رضي الله عنها ـ ، وأسماءُ بنت يزيد[2] الأنصارية ، وأسماءُ بنت أبي بكر[3] ـ رضي الله عنهما ـ .

* وفي عصر التَّابعين برزت خولةُ بنت الأزور الكندية ، وغزالةُ الحرورية زوجةُ شبيب بن يزيد ، وأمُّ حكيم التي اشتركت في القتال بجيش قَطَرِيّ بن الفجاءة ، وكانت تُحارِبُ وهي تقول :

---

(١) و (٢) و (٣) اقرأ سيرهن في كتابنا « نساء من عصر النبوة » الجزء الأول والثاني .

أَحْمِلُ رأساً قد سئمتُ حَمْلَه
وقد مللتُ دهنه وغَسْلَه
ألا فتىً يَحْمِلُ عنّي ثقْلَه

* وتبرزُ امرأة تابعية كان لها كبير الأثر في الشّجاعة والحميّة والمشاركة في حماية المسلمين ، والذّود عن حياضِ الدّين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وقد تألّقتْ بحُسْنِ رأيها وفراستها في معركة القادسية ، فاستحقّتْ بذلك الخلود مع الخالدات في دنيا النّساء الفاضلات .

* إنّها سلمى بنتُ خَصَفَة[1] ، من فاضلات نساء عصر التّابعين ، وممن عاشت فترة الفتوحات الإسلامية الأولى ، وشاركت في حضور ساحات الجهاد ، فكانت ممّنْ آسينَ الجرحى وواسينَ جراحاتهم .

* كانت سلمى بنتُ خصفة التّيمية ـ تيم اللات ـ زوجاً للصّحابي المشهور المثنّى بن حارثة الشّيباني ـ رضي الله عنه ـ الذي دوّخ الفرس ، وكان له الفضل في فتح بلادهم ، فقد أطْمَعَ أبا بكرٍ والمسلمين في الفرس وهوّنَ أمرهم عندهم ، وكان ـ رضي الله عنه ـ شهماً شجاعاً ميمونَ النّقيبة حَسَنَ الرّأي ، أبلى في قتال الفرس بلاءً لم يبلغه أحدٌ ، وجُرِح يوم جِسْر أبي عُبيد ، فانتفضتْ جراحه ومات شهيداً ؛ وذلك في سنة (١٤ هـ)[2] .

* * *

(١) الإصابة (٤/٣٢٤) ، والأعلام للزركلي (٣/١١٤) .
(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٨٤) .

سَلْمَى وَسَعْد :

* لما استشهد المثنّى بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ ، كان قد أمَرَ أنْ يسيرَ المسلمون إلى القادسيةِ ، كما أوصى بسلمى ، وأمَرَ أصحابَه أنْ يعجلوها على سعد بن أبي وقاص ـ وكان قرب القادسية ـ فلما انتهى إلى سعد ما أوصى به المثنّى ترحّم عليه ، وأوصى بأهل بيته خيراً .

ولما انقضتْ عدة سلمى ، خطبها فتزوّجها وبنى بها بمكان يقال له « شراف » ، وكان مع سعد في النّاس يومئذ بضعةٌ وسبعون بدرياً ، وثلاثمئة وبضعة عشر ممّنْ كانت له صُحبة في بيعةِ الرّضوان إلى ما فوق ذلك ، وثلاثمئة ممّنْ شهد الفَتْح ، وسبعمئة من أبناء الصّحابة[1] .

* ونزل سعد بزوجه سلمى إلى القادسية حيث كانت جموعُ الفرس تعسكرُ هنالك ، وشهدت سلمى مع سعد القادسية وغيرها ، ولكنّ كان لها في معركة القادسية[2] شأنٌ كبير .

* * *

---

(١) الكامل في التاريخ (٢/٤٥٣) .

(٢) كان لمعركةِ القادسية كبير الأثر في تاريخنا الوضيء ، فقد كانت الجزيرة العربيةُ ـ عصر ذلك ـ كلّها قد تعلّق فؤادها بهذهِ المعركة لِما كانت ترى فيها مصيرها ، فإمّا أن ينتصر العربُ على الفرس إلى الأبد ، وإمّا أن ينهزموا إلى الأبد .
وكانت لا تزال تتسقّطُ أخبارها تريدُ أنْ تعرف ما سيكون من أمرها ، حتى كان الرّجلُ يُعرضُ عليه أمرٌ من الأمور فيقول : لا أنظرُ في هذا حتى أرى ما يكون من أمرِ القادسية . فلما جاءهم النّصر العظيمُ ، وزفّت إليهم بشراه ، راحوا يتغنون بنصر الله عزّ وجلّ ، وبخبر جيوش الفرس ، ومقتل قائدهم « رستم » الذي خرّ صريعاً للبدين وللفم في أرض القادسية يتخبط في دمه .

وَامُثَنَّياه :

* قبل أنْ تبدأ معركة القادسية ، أصابتْ سعداً ـ رضي الله عنه ـ بعض القروح والدّمامل في جسمه ، فكان من شدّةِ الألم لا يستطيعُ الجلوس ، فلما كان يوم أرماث ـ وهو أول يوم من أيام القادسية ـ جالَ النّاس ، ولم يستطعْ سعدٌ ـ رضي الله عنه ـ مباشرة القتال لما به من القروح ، لكنّه ضَجِرَ وهو متحاملٌ على نفسه وآلامه إلى أعلى القصر ؛ الذي كان ينزل فيه بالعُذيب لينظر في مصالح الجيش ، وفي الشّرفة جلس متكئاً على صدره .

* وكان ـ رضي الله عنه ـ لا يُغْلَقُ عليه باب القصر لشجاعته ، ولو فَرَّ النّاس لأخذته الفُرس قبضاً باليد لا يمتنع منهم ، وكانت بجانبه امرأته سلمى بنت خصفة ـ وهي ترى ما به من الألم ـ فلما رأت سعداً يتململ ويحوقل فوق القصر ، وهو يخشى على أصحابِهِ من غَدَرَات الفُرْس ، فلمّا فَرَّ بعض الخيل يومئذٍ ، ورأت ما يصنعُ أهل فارس فزعتْ وقالت : وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم ! ـ قالت ذلك عند رجلٍ ضجرَ مما يرى في أصحابه ونفسه ـ .

فغضبَ سعد ـ رضي الله عنه ـ من ذلك ولطمَ وجهها وقال :

أينَ المثنى من هذه الكتيبة التي تدورُ عليها الرّحى ؟! .

فقالت : أغيرةً وجبناً ـ يعني أنها تعيره بجلوسه في القصر يوم الحرب ـ .

فقال ـ رضي الله عنه ـ : واللهِ لا يعذرني اليوم أحدٌ إذا أنتِ لم

تعذريني ، وأنتِ تَرَيْنَ ما بي ، فالنّاس أحقّ ألا يعذروني ! .

فعلّقها النّاس ولاموها ـ وكان سعد غير جبان ولا ملوم[1] ـ ، ولم يمضِ إلا وقت قصير حتى اعتذرت سلمى عمّا بَدَرَ منها إلى زوجها سعد ، وطلبت منه أنْ يصفَحَ عنها ، فكان ذلك .

* * *

هَلْ لَكِ إلى خَيْرٍ ؟ :

* أوردتِ المصادرُ موقفاً رائعاً لبطلة ترجمتنا سلمى بنت خصفة يوم القادسية ، إذ تصرّفتْ تصرفاً دَلَّ على فراستِها وذكائها في وقت من أشدّ الأوقات حرجاً على جيش المسلمين .

* فقد كان أبو محجن الثّقفيّ ـ واسمه عبد الله بن حبيب ـ من الشُّعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام . وكان أبو محجن شاعراً فارساً معدوداً في أولي البأس والنّجدة ، إلا أنّه كان من المعاقرين للخمر ، وقد حُدَّ[2] فيها أكثرَ من مرّةٍ فأمرَ به سيّدنا عمر بن الخطاب

---

(١) الكامل (٤/٤٧٣) .

(٢) الحدُّ في الشّرع : عقوبةٌ مقررةٌ لأجل حقّ الله عزّ وجلّ لأنها مقررةٌ لمصالح الجماعة ، وحماية النّظام العام . والحدُّ : جمعه الحدود . والحدُّ في الأصل : الشيءُ الحاجز بين شيئين .

واتفق الفُقهاء على وجوب حدّ شارب الخمر ، وعلى أنّ حدّ الجلد ـ أربعون ـ .

وفي حدّ شارب الخمر قولان :

أحدهما : ثمانون جلدة .

والآخر : أربعون جلدة . =

أنْ يُنفى ، وبعثَ إلى سعد بن أبي وقاص أن يحبسَه ، فسجنه سعد ، وقيّده بالحديد في قصره بالعُذيب في القادسية .

* ولما اشتدَّ القتال بين جيش المسلمين وجموع الفرس ، وحمي وطيسُ المعركةِ ، وأخذتِ الأصواتُ تصلُ إلى سَمْع أبي محجن ، صَعِدَ إلى أعلى القصر في الليل ، وسأل سعداً أن يعفيَه من السّجن ويستقيله ليخوض غمارَ المعركة ، ويكون ممن شرى وباع فيها ، غير أنَّ سعداً ـ رضي الله عنه ـ ردَّهُ ، فنزل أبو محجن وقلبُه يكاد يتفطر من شدَّةِ ما حلَّ به ، فأتى يرسفُ في قيوده إلى زوج[1] سعد سلمى بنت خصفة فقال :

يا سلمى يا بنتَ آل خَصَفَة ، هَلْ لكِ إلى خيرٍ ؟ .

= فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : أُتي رسول الله ﷺ برجل قد شربَ الخمرَ ، فضربه بالنّعال نحو من أربعين ، ثم أُتي به أبو بكر فصنع مثل ذلك ، ثم أُتي به عمر فاستشار النّاس في الحدود فقال ابنُ عوف : أخفّ الحدود ثمانون ، فضربه عمر . رواه البخاريّ ومسلم . ـ والقذْف : هو أقلّ الحدود ـ .

إذن فحدُّ شارب الخمر أربعون جلدة ، والزّيادة تجوز إذا كان ثمّة مصلحة للمسلمين . ومن الجدير بالذكر أنَّ تحريمَ الخمر كان بعد غزوة الأحزاب .

وقد حرّم الإسلام الخمر ، لأنّها أمّ الخبائث ، ولأنها تضعفُ الشّخصية ، وتذهبُ بالعقل ، يقول أحدُ الشّعراء في هذا :

شربتُ الخمرَ حتى ضلَّ عقلي ... كذاكَ الخمرُ تفعلُ بالعقول

وبذهاب العقل يستوي الإنسان والحيوان ، لا بل يتحول الإنسان إلى مجموعة من الشّرور والفساد ، كالقتل والعدوان والفحش وغير ذلك . نسأل الله العافية .

(١) « زوج » : جمعه أزواج . والمرأة زوج الرّجل وهو زوجها ، هذا هو الأفصح ، وهو لغة قريش وبها نزل القرآن كقوله : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ [البقرة : ٣٥] . ومن العرب من يقول : زوجة وهو نادر ، لا يكادون يقولونه .

قالت : وما ذاك يا أبا محجن ؟ .

قال : تخلّينَ عني ، وتعيرينَي البَلْقَاء ـ فرس سعد ـ فللّه عليَّ إنْ سلّمني الله أنْ أرجعَ إليكِ حتى أضعَ رجلي في قيدي ، وإنْ قُتلتُ استرحْتُم مني .

فأوجستْ خيفةً في نفسها سلمى بادىء الأمر ، ثم قالت : وما أنا وذاك دعني من هذا؟ .

فرجعَ يرسفُ في قيوده ، وأنشأ يقولُ في تحرّقٍ وتندّم :

كفى حزناً أنْ تردَي الخيلُ بالقنا
وأُتركَ مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمتُ عنّاني الحديد وأُغلقتْ
مصاريعُ دوني قد تُصمُّ المناديا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ
فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
وقد شفَّ جسمي أنّني كلَّ شارقٍ
أعالجُ كبلاً مصمتاً قد برانيا
فللّه درّي يومَ أُترك موثقاً
وتذهل عني أُسرتي ورجاليا
حبيساً عن الحرب العوان وقد بدتْ
وأعمال غيري يوم ذاك العواليا
ولله عهدٌ لا أخيسُ بعهده
لئن فُرجتْ ألّا أزورَ الحوانيا

وسمعتْ سلمى ما ينفث به أبو محجن ، ولاحظت شدة تأثره وندمه ، وتفرّستْ في ملامحه ، فرأتْ علائم الصّدق في وجهه ، عندئذ قالت له : يا أبا محجن ، إنّي استخرتُ اللهَ عزّ وجلّ ورضيتُ بعهدك ، وأطلقتُه من قيدِهِ ، ثم قالت له : هذا ما أستطيع أنْ أقدمه لكَ ؛ أمّا الفرس فلا أعيرها ، ورجعت إلى بيتها .

واستطاعَ أبو محجن أنْ يصلَ إلى البَلْقاء ، فاقتادها ، وأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق ، فركبها ثم دبَّ عليها ، وأخذ الرّمح ، وانطلقَ حتى أتى النّاس ، ولما كان بِحيالِ الميمنة كبّر ، ثم حَمَلَ على مَيْسَرةِ القوم يلعبُ برمحه وسلاحه بين الصّفين ، ثم رجع من خلف المسلمين ، وحَمَلَ على ميمنة القوم يلعبُ بين الصّفّيْنِ برمحه وسلاحه ، فجعل لا يحمل على ناحية إلا هزمهم الله ، وكان يقصفُ النّاس ليلتئذ قصفاً منكراً .

وتعجّبَ النّاس منه وهم لا يعرفونه ، إذ إنّهم لم يروه مِنَ النّهار ، فقال بعضهم : أوائلُ أصحاب هَاشِم ، أو هاشم[1] نفسه .

---

(١) يقصدون بذلك هاشم بن عتبة ـ وهو هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص الزّهريّ ، صحابيّ وخطيبٌ من الفرسان ، يلقّبُ بالمِرقال ـ ولُقّب بالمِرقال : لأنّه يرقُل في الحرب أي : يُسرع ـ من الإرقال : وهو ضربٌ من العدو ـ . وهاشمٌ هو ابن أخي سعد بن أبي وقاص . أسلم يوم فتح مكة ، ونزل الشّام بعد فتحها ، فأرسله عمر ـ رضي الله عنه ـ مع ستة عشر رجلاً من جند الشّام مدداً لسعد بن أبي وقّاص في العراق ، وشهد القادسية مع سعدٍ وقُلعت عينه يوم اليرموك ؛ وكان من الأبطال الشّجعان المعدودين ، ومن الفضلاء الأخيار قتل سنة (٣٧ هـ) بصفّين ـ رضي الله عنه ـ (أسد الغابة : ٥/٤٩ و ٥٠) ، و (الأعلام : ٨/٦٦) .

وجعل سعد ـ رضي الله عنها ـ يقول وهو مشرف على النّاس من فوق القَصْرِ ينظر إلى أبي محجن وشجاعته : واللهِ لولا مَحبس أبي محجن لقلتُ : هذا أبو محجن ، وهذه البَلْقاء ! بينما قال بعض النّاس وقد تملكهم العجب أيضاً : إنْ كان الخَضِرُ ـ عليه السّلام ـ يشهدُ الحروب فنظنُّ صاحب البلقاء الخَضِر نفسه .

وقال آخرون : لولا أنَّ الملائكة لا تباشر القتال لقلنا : مَلَكٌ يقاتلُ معنا ويُثَبِّتُنا .

ولم يزلْ أبو محجن يقاتلُ ، ولا يذكره المسلمون ولا يأبهون له ، لأنّه ـ كما يعرفون ـ قد بات في محبسِهِ وقد أثْقَلَتْه القيود ، ولم يعلموا أنَّ مبيتَه كان تلكَ الليلة على صهوةِ الجواد ، لا في القيودِ والأصفادِ .

ولما انتصفَ الليلُ حَاجزَ أهلِ فارس ، وتراجع المسلمون ، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصرَ منْ حيثُ خرج ، ووضع عن نفسه وعن دابته ، ووفى لسلمى بعهده ، فأعادَ رجليه في القيد كما كانتا ، وطفقَ يقول والحماس يسيلُ على لسانه :

لقد علمتْ ثقيفٌ غيرَ فَخْرٍ
بأنّا نحنُ أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعاً سابغاتٍ
وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنّا وفدهم في كلِّ يومٍ
فإنْ عموا فَسَلْ بهمُ عريفا

وليـــلةَ قـــادسٍ لم يشـــعـــروا بي
ولم أُشْـــعِـــر بمخـــرجيَّ الرّحـــوفـــا
فـــإنْ أُحبس فـــذلكـــم بـــلائي
وإنْ أتـــرك أذيقـــهـــم حتـــوفـــا

* * *

سَلْمَى وَتَوْبَةُ أَبِي مِحْجَن :

* وسمعتْ سلمى ـ رحمها الله ـ ما أنشده أبو محجن ، فَسَرتْ في نفسها فرحةٌ عارمةٌ بإطلاقه ، ومِنْ ثَمَّ وفائه ، فأقبلتْ نحوه وقالت له : يا أبا محجن ، في أيِّ شيء حبسك هذا الرّجل ؟ ـ سعد ـ قال : أمَا واللهِ ما حبسني بحرامٍ أكلته ولا شربته ؛ ولكنّي كنتُ صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يَدِبُّ الشّعر على لساني فأبعثه على شفتي أحياناً ، فيُساء لذلك ثنائي ، ولذلك حَبَسني لأنّني قلتُ :

إذا متُّ فـــادفني إلى أصْـــلِ كرمةٍ
تـــروِّي عظـــامي بعـــد موتي عروقهـــا
ولا تـــدفنّـــني بـــالفـــلاةِ فـــإنّني
أخـــافُ إذا مـــا متُّ ألّا أذوقهـــا

* وفي صباح تلك الليلة جاءت سلمى سعداً ـ رضي الله عنه ـ ، وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن ، فدعا به وأطلقه ، وأخذ عليه العهد ألّا يُقْدِمَ على الخمرة ، فتاب أبو محجن إلى الله توبةً نصوحاً فلم يَعُدْ إلى معاقرتها أو ذكْرها ، ولم يعد يتكلم بقبيح أبداً .

* وكان لسلمى بنت خصفة كبير الفَضْل في سبب توبة أبي محجن ، وفي حُسْن بلائه مع المسلمين ، إلى أنْ أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ نصره عليهم ، ودَحَرَ عدوَّهم ، وقهر كبَارهم وأذلَّهم إلى أبدِ الدَّهر[1] .

* * *

وَدُودٌ وَلُودٌ :

* كانت سلمى بنتُ خصفة رحمها الله ـ ودوداً ولوداً ـ ، فقد أورد صاحب « الطَّبقات » أنَّها ولدت لسعد ذكوراً وإناثاً ، فالذُّكور هم : عُمير الأصغر ، وعمرو ، وعمران .

والإناث : أمّ عمرو ، وأمّ أيوب ، وأمّ إسحاق[2] .

* وظلَّت سلمى ـ رحمها الله ـ في كنَف زوجها حتى توفاه الله في سنة (٥٥ هـ) .

* أمّا أولادها ، فقد ذكر ابن سعد في « الطَّبقات » أن عمرو بن سعد ، وعمير بن سعد ، قد قُتلا يوم الحرَّةِ بالمدينة المنوّرة في سنة (٦٣ هـ) ـ رحمهما الله ـ .

* وأمّا سلمى بنت خصفة ، فقد وافاها الأجل قبل مَقْتل ولديها

---

(١) انظر القصة في المصادر التالية مع الجمع بينها : تاريخ الطّبري (٢/٤١٦) ، والاستيعاب (٤/١٨١ ـ ١٨٥) ، وأُسد الغابة (٥/٢٩٠ و ٢٩١) ، والبداية والنهاية (٧/٤٥) ، والأغاني (٢١/١٣٩ و ١٤٠) ، والكامل في التاريخ (٤/٤٧٥ و ٤٧٦) ، والإصابة (٤/١٧٣ ـ ١٧٥) وغيرها من المصادر .

(٢) الطبقات (٣/١٣٨) .

بثلاث سنين ، وبعد وفاة زوجها بخمس سنين ، إذ كانت وفاتها في سنة (٦٠ هـ) على أصحّ تقدير .

* وبهذا طوى الموتُ شخص سلمى ، بينما نشر التّاريخ صفحتها النّاصعة التي تحكي مروءتها وشجاعتها ، وتجعلها في مقدمة النّساء القدوة لمن أرادتْ أنْ تقتديَ بها .

* فرحم الله سلمى بنت حصفة ، وجعلها في مستقرّ رحمته .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

أم عاصم بنت عاصم

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٦)

أم عاصم بنت عاصم

* تقيّة ، نقيّة ، محبّة للخير والعلم ، محسنة ، كريمة ، أم عمر بن عبد العزيز .

أُمُّ عَاصِم بِنْتُ عَاصِم

إنَّ ربَّ عُمَر يَرانَا :

* تعالوا نشهد هذه الليلة الشَّاتية الخالدة منْ ليالي المدينة المنوّرة في عهد سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضي الله تعالى عنه ــ .

* ففي ليلة ساكنة ، قد سجى ليلها ، أوى النّاس فيها إلى دورهم ومضاجعهم يلتمسون الدّفء من ذلك البرد الزّاحف ، إلا أنَّ رجلاً واحداً أفزعته مسؤولياته ، نَضَا عنه غطاءه وخرج يجوب طرقات المدينة التي خلَتْ من النّاس ، ولم يبق بها سوى قطع الظّلام الدّامس ، ولفحات الرّيح الباردة .

* خرج ذاك الرّجل وحده يعسُّ في الليل ، فلعلّ هناك ابن سبيل لا يجد مأوى ، أو مريضاً أسهره الألم ، أو جائعاً لا يجد ما يسدّ به رمقه ، ولعلّ هناك شأناً من شؤون رعيته قد غاب عنه ، وهو مسؤول عن شاةٍ قد تتعثر بعيداً في شاطىء الفرات ، والله سبحانه سائله عن ذلك ومحاسبه عليه .

* كان ذاك الرجل أمير المؤمنين . نعم ، فلِمَ الاستغراب ؟! .

إنّه خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ــ رضوان الله عليه ــ .

* وطال تطواف عمر ــ رضي الله عنه ــ في ذاك الليل البهيم ، وكاد

التعب يستولي على جسمه ، فاستند إلى جدار دارٍ صغيرة في طرف المدينة ، ووقف يستريح بعض الشيء . ليتابع خطوه بعد قليل نحو المسجد ، فقد أوشكتْ خيوطُ الفجر بالظّهور ، وأخذت جيوش الظّلام تعدّ العدة لتترك مكانها لضياء النّهار .

* في تلك اللحظاتِ ، ترامى إلى سمعه صوت امرأتين داخل الدّار الصّغيرة ، كان ذلك حواراً بين أم وابنتها ، وكانتِ البنتُ تجادل أمّها وترفض أن تمزجَ اللبن ـ الحليب ـ بالماء ... كانت الأم تقول : امزجي اللبن بالماء .

فقالت الفتاة : إنَّ أمير المؤمنين عمر منع عن مَذْق اللبن ، ألم تسمعي مناديه بالأمس ينهى عن ذلك ؟ .

فقالت لها الأمُّ : إن عمر لا يرانا ، ولا يدري بنا الآن في هذه السّاعة المتأخرة من هذا الليل ! .

فردّتِ البنتُ على الفور : يا أمي ، إن كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا ، والله ما كنتُ لأفعله وقد نهى عنه .

* كانت عبارةُ هذه الفتاة برداً وسلاماً على قلب سيدنا عمر الذي تملكه العجب من جوابها لأمها الذي يجمع الصّدق والإيمان ، والخوف من الله عزَّ وجلَّ ، ومراقبة النفس سراً وعلانية .

* وأسرع لتوه إلى المسجد النبوي الشّريف ، وصلى بأصحابه ، ثم عاد إلى بيته ، وكلمات الفتاة الصادقة تعاود سمعه : إن كان عمر لا يرانا فإن ربَّ عمر يرانا ...

* ودعا عمر ابنه عاصماً ـ وكان مزمعاً على الزواج ـ وأرشده إلى بيت الفتاة ، وحدّثه بما سمع ، وقال قولته المشهورة : اذهب يا بني فتزوّجها ، فما أراها إلا مباركة ، ولعلّها تلدُ رجلاً يسودُ العرب .

* وتزوّج عاصم تلك الفتاة الفقيرة الورعة ، واسمها أمُّ عمارة بنت سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفي ـ وقيل من بني هلال ـ ، فأنجبت له ابنةً أسموها ليلى ، وكنوها أم عاصم وهي صبيتنا في هذه الصّفحات ، كما أنجبت لعاصم ابنة أخرى اسمها حفصة[1] .

* * *

أمُّ عاصم ونَشْأةٌ عُمَرِيَّةٌ :

* نشأت أمُّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب القرشيّة العدويّة نشأة تقيّة نقيّة ، ودرجت في شبابها على حبِّ الخير ، وحبِّ العلم ، فتلقّتْ عن أبيها عاصم وحدّثتْ عنه .

* وكان أبوها ممن ولد في حياة الرّسول ﷺ ـ وكان خيّراً فاضلاً فصيحاً ، وقد ورثتْ أمُّ عاصم هذه الفضائل والخصال الحسنة عنه ، وتوفي عاصم سنة (٧٣ هـ) ـ رضي الله عنه ـ .

* وكانت أمُّ عاصم ـ رحمها الله ـ منْ أكملِ أهل دهْرِها أخلاقاً ، وأكرمهن خِلالاً ، فأمُّها ـ أم عمارة الثّقفية ـ تلك المرأة التي اتخذها

---

(١) عن نسب قريش (ص ٣٦١) ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٢٢ و ٢٣) ، وتاريخ دمشق (ص ٥٢٧) ، ووفيات الأعيان (٣٠٢/٦) ، ومناقب عمر لابن الجوزي (ص ٨٤) بتصرف .

عمر زوجاً لابنه عاصم ، وليس لها ما تعتزُّ به من نسب وحسب إلا ما جرى على لسانها من قولها الصِّدق في نصحها لأمّها ، وليس لها من نسب أيضاً إلا دينها وإسلامها ... :

أبي الإســـــلام ، لا أبَ لي ســـواه
إذا افتخـــــروا بقـــيس أو تمـــيم

* واقتبست أم عاصم[1] الخلال الحميدة والخصال الكريمة من أبويها ومن جدّها عمر ـ رضي الله عنه ـ ، فكانت من صفة الصَّفوة ومن خيار النساء التّابعيات ممن يؤخذ عنهن العلم ويؤثر عنهن الصّدق .

* وقد روى عن أمّ عاصم ابنها عمر ، فمن مروياتها ما ورد عنها عن أبيها عاصم عن جدها عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « نِعْم الإدام الخلّ[2] » .

* * *

المَالُ الطَّيِّبُ والزَّوَاجُ المُوَفَّقُ :

* ذكر النّبي ﷺ أنّ النّاس معادنٌ ، يتفاوتون في الخير والشّر ، والشّرف والوضاعة فقال : « النّاس معادنٌ في الخير والشّر ، فخيارُهم في

---

(١) قال النّووي رحمه الله : أمّ عاصم بنت عاصم واسمها ليلى سكنت دمشق (تهذيب الأسماء واللغات : ٢/١٨) .

(٢) رواه مسلم (٢٠٥٢) في الأشربة ، باب : فضيلة الخل والتأدم به ، وانظر جامع الأصول (٧/٤٦٩) .

الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا[1] » .

* ولهذا حثَّ النَّبيُّ الكريم ﷺ الرَّاغب في الزواج أن يكون اختياره للمرأة ـ الزَّوجة ـ على أساس الخلق الكريم القويم ، والصَّلاح والأصالة ، وأن يبحثَ عن الفتاة ذات التَّربية الحسنةِ ، فقال ﷺ :

« تخيروا لنطفكم ، وأنكحوا الأكفاء[2] » .

* من هذا المنطلق السَّليم ندرك توجيه رسول الله ﷺ أنظار الرَّاغبين في الزَّواج كي يختاروا زوجاتهم من بيئة صالحة ، قد انحدرن من أصول عريقة ، ذات عروق سليمة ، ليكتسب أولادهم العادات الأصيلة ، والأخلاق الكريمة فالولدُ ينزع إلى أصل أمِّه وطباعها . وهذا ما كان لعبد العزيز بن مروان الذي كان ينظر نظرةً فاحصةً فيمن حوله من الفتيات ، ومن ذَوَاتِ الصَّلاح والفلاح لتكون قرينةً له ، فكان ذلك .

* وكان عبد العزيز بن مروان ـ هذا ـ أميراً من أمراء بني مروان ، وكان ولي العهد بعد أخيه عبدِ الملك بن مروان ، وعندما أرادَ أنْ يتزوَّجَ طلبَ من خازنِ ماله أنْ يتخيَّرَ من أطيب ماله وصالحه ليكون مهراً لزوجه فقال له :

اجمعْ لي أربعمئة دينار من طيبِ مالي ، فإنِّي أريدُ أنْ أتزوجَ إلى أهلِ

---

(١) رواه الطيالسي في مسنده (٣٢٤) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٦٨) في النكاح ، باب الأكفاء . « تخيروا لنطفكم » : أي لا تضعوا نطفكم إلا في أصل طاهر .

بيتٍ لهم صلاح[1].

* ولم يشترط عبد العزيز ما يشترطه الأمراء الأثرياء من الجمال أو المنزلة، وإنّما طلب العِرْقَ الطّيّب في المنبت الطّيب، فأصهر إلى آل الخطابِ، واختار ـ ليلى ـ أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر، ومن يصهر إلى آل الخطاب، فإنه لا يتقرب منهم لمكانتهم، فآلُ الخطاب لم يسعَوْا لمجد مؤثل عريض، بل اتجهتِ الأسرةُ العمريةُ إلى العلم والزُّهد، ومن يصهر إليهم فإنّما يرجو لأولاده حياةً كحياة آل الخطاب، فالولدُ ينزع نحو أخواله.

* ولئن فاتنا ـ نحن ـ النّسب إلى آل الخطاب، فلا يفوتنا الانتساب لهم في الحديث عنهم، فقد كانت أمُّ عاصم ـ رحمها الله ـ محسنة كريمة صالحة، ورثتِ التّقوى عن أمّها وأبيها، كما كانت نقيةَ النّفس، طاهرة القلب، مؤمنة بالله على أساس صحيح، لذلك قيّض الله لها الجَمْع الطّيّب والمال الحلال ليكون مَهْراً لها، وكان من ثمرة زواجها بعبد العزيز بن مروان أنْ ولدت له عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، والتقي الورع.

* * *

أمُّ عاصم وتَرْبيةُ عُمَر:

* في المدينةِ المنوّرة كان مولد عمر بن عبد العزيز، ومنْ ينابيع علومها نهل ما يشاء له أن ينهل، وأسّستْه أمّه على التّقوى من أول يوم منيّر

(١) الطبقات (٥/٣٣١)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/١٩).

فيه بين الخير والشر ، وزرعت في نفسه الحكمة التي صاحبته إلى أن لقي الله عزّ وجلّ زاهداً تقياً نقياً ، كما حببتْ إليه العلمَ وزيّنته في قلبه فنشأ نشأةَ العلماء في المدينة ـ والمدينة يوم إذ منارة للعلم والصّلاح تزخر بالعلماء والفقهاء والعبّاد والصّالحين ـ وعكف بإشراف أمّه على حفظ كتاب الله عزّ وجلّ حتى حفظه في زمن قصير وجيز ، ولمّا يشتدّ عوده بَعْد ، أو يبلغ مبلغ الرّجال .

* ولقد كان لتأثير القرآن الكريم في نفسه الصّغيرة ، أن امتلأ قلبه التّقي بخشية الله ، وتمسّك بأسباب التُّقى فارتقى ، فكانت عيناه تفيضان بالدمع من خشية الله عزّ وجلّ فيبكي ويبتحبُ .

* وكانت أمُّ عاصم ـ رحمها الله ـ تعجب من ولدها الصّغير الورع البكّاء ، فيحرك في قلبها كوامن الخشية فتبكي هي أيضاً ، ذكر ابن عساكر ـ رحمه الله ـ أن عمر بن عبد العزيز بكى ـ وهو غلام صغير قد جَمَع القرآن ـ فأرسلت إليه أمّه ما يبكيك ؟ ! .

قال : لا شيء يا أماه ، ذكْرُ الموت ، ذِكْر الموت ! .

فبكت أمُّه من ذلك وأشفقت عليه[1] .

* ولقد جَنَتْ أم عاصم غراس التُّقى بابنها في وقت مبكر ، وآتت أكلها في شخص ابنها عمر بن عبد العزيز ؛ الذي أثار إعجاب أستاذه وشيخه صالح بن كيسان[2] الذي قال عن طفولة عمر : ما خبرت

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٥٣٩) بتصرف يسير جداً .

(٢) صالح بن كيسان المدنيّ التابعيّ ، أبو محمد : مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز ، ثقةٌ ، =

أحداً ، الله أعظم في صدره مِنْ هذا الغُلام . . .

* كلُّ هذه الفضائل كانت ثمرة جهد الورعة التَّقية أم عاصم ، نعم ، فقد كان ذلك في نجابة ابنها في طفولته الغضة النَّضيرة ، ولله در القائل :

نِعَـــمُ الإلهِ عـلى العبـــادِ كثـــيرةٌ
وأتمهـــــنَّ نجـــــابـــــةُ الأولاد

* وماذا يعد عن أمّ عاصم أم الغلام السَّعيد النَّجيب ؟ فقد كانت تحوطه برعايتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، لكنّه أفلتَ منها مرّةً ، ودخل إلى إصطبل الخيل ـ وهي لا تشعر ـ فرمحته ـ ضربته ـ دابّةٌ ، فشجته في جبينه ، وبصُرتْ به أمّ عاصم عن جنب فأسرعتْ وضمّته إلى صدرها ، وجعلتْ تمسح الدّمَ عن وجهه ، ودخل أبوه عليها على تلك الحال ، فأقبلت أمُّ عاصم عليه وجعلتْ تعذله وتلومه وتقول :

ضيّعتَ ابني ولم تضمَّ إليه خادماً ، ولا حاضناً يحفظه مِنْ مثلِ هذا .

وصمتت هنيهات إذْ طافتْ بخاطره ذكرى ألقتْ على ثغره ابتسامة رضىً ، ورسمت على وجهه علائمَ سرور وقال لها :

اسكتي يا أمّ عاصم ، فطوباك إنْ كان ـ ابنك ـ أشجَّ بني أمية[1] .

= ثبتٌ ، فقيهٌ ، كان من فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه ، وهو أحد الثّقات في رواية الحديث . قال ابن ناصر الدّين : عاش أكثر من مئة سنة . توفي سنة (١٤٠ هـ) رحمه الله تعالى .

(تقريب التهذيب : ١/٣٦٢) ، و (الأعلام : ٣/١٩٥) .

(١) عن تاريخ الطبري (٤/٦٨) ، وتاريخ دمشق (ص ٥٣٤) بتصرف يسير .

وفي رواية : إنْ تكنْ أشجَّ بني أمية إنك إذن لسعيد .

* والآن ، فما الذكرى التي أثارتها هذه الحادثة في نفس عبد العزيز بن مروان ؟ إنّها رؤيا سيّدنا عمر بن الخطاب العبقريّ الملهم الذي رأى في نومه ذات ليلة رؤيا نهض من فراشه على إثرها يعجب ويقول :

مَنْ هذا الأشجّ من بني أمية ، ومن ولد عمر ، يُسمى عمر ، يسيرُ بسيرة عمر ، ويملأُ الأرض عدلاً ؟!! .

* وتوفي عمر ـ رضي الله عنه ـ ، وظلّ حلمه هذا يدوّي بين أهله وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلامة في وجوه أبنائهم ، إلى أنْ كانت هذه الحادثة التي توقّعها عبدُ العزيز بن مروان في ابنه عمر ، فلم تخطىء فراسته بذلك .

* فقد كان عمرُ بن عبد العزيز هو ذلك الأشجُّ الذي حوّلَ شهقات البائسين وحرقتهم إلى بَسمات متهلّلة ، تمرح تحت ظلال عدلِهِ وبرّه ـ رحمه الله ـ ، وكان مردُّ تلك التّربية الفريدة إلى أمّه أمّ عاصم ـ رحمها الله تعالى ـ .

* * *

كَرَمُهَا وَبِرّهَا :

* غادرتْ أمُّ عاصم المدينة المنوّرة لاحقةً بزوجها عبد العزيز بن مروان في مصر ـ إذ كان والياً عليها ـ وأقامتْ هناك . . .

* هذا وعُرفتْ أمُّ عاصم بالجود والكرم ، والرّحمة والبرّ بالضّعفاء ،

وقد كان بمصرَ إنسانٌ به خَبَلٌ وسذاجَةٌ ، فكانت أمُّ عاصم قد مرّت به ، فتعرّضَ لها ، فأعطته وأحسنتْ إليه ، وكانت تحسنُ إليه دائماً كلّما مرت به . وتوفيتْ أمُّ عاصم عند عبد العزيز بن مروان[1] ، فأصهر مرة أخرى آل الخطاب ، وتزوج حفصة بنت عاصم أخت أمّ عاصم ، وحُملت إليه وهو بمصرَ .

* وخرجتْ حفصةُ بنتُ عاصم ذاتَ يوم فمرّتْ بذاك الرّجل السّاذج البسيط ، فلمْ ترفعْ إليه رأساً فقال : ليستْ حفصة من رجالِ أمّ عاصم . يريدُ ليست حفصة من زمرة أمّ عاصم في كرمها وبرّها وجودها ، فصارت كلمته مثلاً[2] .

* وقبل الوداع مع نفحة السّيرة العمرية وسيرة أمّ عاصم سليلة عمر بن الخطاب من غلامٍ بربري : لما ردَّ عمر بن عبد العزيز مظالم أهل بيته ، وأخذهم بالحقّ ، قال مولى لآل مروان بربري يخاطبهم : وأنتم أيضاً فتزوّجوا بنات عمر بن الخطاب .

* رحم الله أمّ عاصم بنت عاصم ، ونضّر قبرها ، وعصمنا من الزّلل ، إنّه سميع مجيب .

* * *

---

(١) لا نملكُ سنداً وثيقاً يحدد سنة وفاة أمّ عاصم ، وأغلب الظّن أنها توفيت في حدود سنة لمائتين ، لأنّ وفاة زوجها كانت سنة (٨٦ هـ) ، والله أعلم .

(٢) عن نسب قريش (ص ٣٦١) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ١٨٨) بتصرف يسير جداً .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

حفصة بنت عبد الرحمن

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

www.dawahmemo.com

(١٤)

حفصة بنت عبد الرحمن

* قال العجلي :

حفصة بنت عبد الرحمن : تابعية ، ثقة .

* راوية للحديث النبوي الشريف ، أحاديثها في الصحيح والسنن ، فقيهة .

حَفْصَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحمن

مَيْدانُ الفَضائِل :

* في حلبةِ التَّسابق في ميدان الفضائل ، تأتي هذه التَّابعية الجليلة في مقدمة نساء عصر التَّابعين .

فجدّها : الصِّدّيق أبو بكر ، وما أدراك ما الصِّدّيق ؟ يكفيه من الفضل أنّه أول مَنْ أسلم من الرِّجال ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وكانت له في الإسلام مواقف رفيعة لا يمكن أنْ تُحصر في كتاب ، وله أوليات لا توجد لغيره منها : أنّه أول خليفة في الإسلام ، وأول أمير أُرسل على الحج ، حج بالنّاس سنة تسع من الهجرة ، وأول الخلفاء الرّاشدين وأفضلهم ، وهو من كبار الصَّحابة الذين حفظوا القرآن الكريم كلّه ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ .

وجدتُها لأبيها : أمّ رُومان بنتُ عامر بنِ عويمر الكنانية ، حماة رسول الله ﷺ ، وأمُّ زوجه عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ ، وأمّ رومان من فاضلات نساء الإسلام ، ومن المهاجرات الأول ، ومن القانتات العابدات ، وفيها يقول ﷺ : « مَنْ سرّه أن ينظر إلى امرأةٍ من الحور العين فلينظر إلى أمّ رومان »[1] .

---

(١) اقرأ سيرة أم رومان في كتابنا « نساء مبشرات بالجنة » (١/١٢٧ ـ ١٤٧) ، ففيه ما يلذ الأسماع إن شاء الله .

أما عمّتُها شقيقة أبيها : فهي عائشة أمّ المؤمنين بنت الإمام الصّدّيق الأكبر ، خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر ، وزوجة النّبيّ ﷺ ، وأفقه نساء الأمّة على الإطلاق .

وأمّا خالتُها : فهي أمّ سلمة أمّ المؤمنين ، السّيدة المحجبة الطّاهرة ، هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزوميّ ، منَ المهاجرات الأول ، ومن أشرف النّساء حسباً ونسباً ، وهي آخر مَنْ مات من أمّهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن جميعاً ـ ، وكانت تعدُّ من فقهاء الصّحابيات ـ رضي الله عنها ـ .

وأبوها : عبدُ الرحمن بن أبي بكر الصّديق ، شقيق أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، أحد فرسان مدرسة النّبوة ، وكان أسنّ أولاد الصّديق ، وكان من الرُّماة المذكورين والشّجعان المشهورين ، قُتِلَ يوم اليمامة ـ وحده ـ سبعة من كبار المشركين ، ويكفيه فخراً أنّه كان سِلْفاً لرسول الله ﷺ .

وأمُّها : قريبة بنت أبي أمية المخزومية ، أخت أمّ سلمة ـ أمّ المؤمنين ـ لأبيها ، وقد أسلمتْ وبايعتِ النّبيَّ ﷺ ، وتزوّجت عبد الرحمن بن أبي بكر ، وكان في خلقه شدة ، فقالت له يوماً : أمَا واللهِ لقد حُذِرتكَ .

قال : فأمرُك بيدك .

قالت : لا أختار على ابن الصّدّيق أحداً ؛ فأقام عليها فلم يكن طلاقاً ؛ وهذا دليل على فضلها وكرم أصلها .

* في بحار هذه الفضائل وأنوارها ، نشأت حفصة بنت عبد

الرحمن بن أبي بكر الصّديق[1] ، فكانت من شهيرات التّابعيات اللواتي تُؤخذُ عنهن الرّواية .

* * *

مَعَ عَمّتِها عائِشَة :

* في كَنَفِ عمتها عائشة أمّ المؤمنين ، لقيتْ حفصةُ كلَّ رعاية واهتمام ، وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تحبّها وتكرمها ، وتنظر في شؤونها ، ولمّا بلغت حفصة مبلغ الزّواج زوجتها من أحد الأكْفاء ، ومن وجوه قريش وشجعانهم وأكابرهم المنذر بن الزّبير بن العوّام الأسدي[2] ـ ابن أخت عائشة من أسماء ـ وكان المنذر ـ هذا ـ منقطعاً إلى معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وقد أوصى معاوية أنْ يحضرَ المنذرُ غَسْلَه ، وللمنذر أخبار كثيرة ، وقتل مع أخيه عبد الله سنة (٧٣ هـ) .

* وفي « الطّبقات » ذكر ابن سعد أنّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، قد زوّجت ابنة أخيها حفصةَ من ابنِ اختها المنذر ، وكان إذ ذاك عبد الرحمن غائباً عن المدينة ، فلما قدم من سفره ، لم يُجزْ ذلك النّكاح وردّه ، وعندما صيّر أمْرَ ابنته حفصة إليه ، عندئذ دعا المنذر وزوجها إياه .

* ويبدو أنّ هذا الزّواج كان زواجاً موفقاً ، فقد ولدت حفصة للمنذر ، وكان لها من الذّكور ولدان وهما : عبد الرحمن وإبراهيم ،

(١) الطبقات الكبرى (٤٦٨/٨) ، وأعلام النساء (٢٧٤/١) .
(٢) انظر ترجمته وأخباره في نسب قريش (ص ٢٤٤) .

وولدت له ابنة اسمها قُرينة بنت عبد الملك[1] ، ونشأ هؤلاء الأولاد في رعاية أمّهم وأبيهم فكانوا من فضلاء عصرهم .

* * *

رِوَايَتُهَا وحِفْظُهَا :

* لعلَّ البيئة التي عاشتها حفصة بنت عبد الرحمن ، والأسرة التي عاشت في كنفها جعلتها من ثقات الرّاويات للحديث النبويّ الشّريف ، ومن الواضح أنَّ حفصة روت عن أقاربها فقط ، وكلّهم ثقة أعلام في الحفظ والإتقان .

* روت عن أبيها عبد الرحمن بن أبي بكر ، وروت عن عمتها عائشة أمّ المؤمنين أكثر النّساء الصّحابيات معرفة لأحوال النّبيّ ﷺ ، كما روت عن خالتها أمّ سلمة أمّ المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ .

* ومن الجدير بالذكر أنَّ عائشة وأمّ سلمة ــ رضي الله عنهما ــ أكثر نساء الإسلام على الإطلاق روايةً وحفظاً لأحاديث النّبيّ ﷺ ، فقد روتْ عائشة ــ رضي الله عنها ــ عن رسول الله ﷺ (٢٢١٠ أحاديث) ، وأمّا مسند أمّ سلمة أمّ المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ فيبلغ (٣٧٨ حديثاً) .

* أمّا الذين روَوْا عن حفصةَ بنتِ عبد الرحمن ، فكلّهم من كبار علماء التّابعين ، ومن العاملين في فنون الحديث النّبويّ الشّريف . وقد

---

(١) عن الطبقات (٨/٤٦٩) .

روى عنها : عِرَاك بن مالك[1] ، وعبد الرحمن بن سابط ، ويوسف بن ماهك ، وعون بن عباس .

* وأحاديثها مروية في الصّحيح ، وفي السُّنن .

وروى لها الإمام مسلم في صحيحه .

ومن رجال السُّنن : أبو داود ، والتّرمذي ، وابن ماجه .

* أمّا عن توثيقها ، فقد وثقها علماء الحديث ، فقال عنها العجليّ : حفصة بنت عبد الرحمن تابعية ثقة . وأمّا ابن حبان فقد ذكرها في الثّقات .

* * *

مِنْ أخبارِها الفِقْهيّة :

* في مدرسةِ أمّ المؤمنين عائشة تخرّجت حفصة ابنة أخيها ، وكانت حفصةُ ـ رحمها الله ـ تلازم عمتها وتقتدي بها في أعمالها ، وتستمع إلى كلّ ما ترشدها إليه عائشة من الأمور الشّرعية أو ما يهم أمور النّساء ؛

---

(١) عراكُ بنُ مالك الغفاريّ الكنانيّ المدنيّ التّابعيّ ، روى عن عددٍ من الصّحابة مثل : ابن عمر ، وأبي هريرة ، وعائشة ، وعن التّابعين مثل : حفصة بنت عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير وآخرين . وروى عنه أعلام من التّابعين مثل : سليمان بن يسار ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ومكحول وغيرهم . وثّقه العجليّ وأبو زرعة وأبو حاتم وقالوا : ثقة من خيار التّابعين ، وكان يصوم الدّهر ، وقد ذكره ابن حبّان في الثّقات . مات في خلافة يزيد بن عبد الملك ، وأخبار عراك كثيرة ـ رحمه الله تعالى ـ (تهذيب التهذيب : ٧/١٧٢ ـ ١٧٤) .

وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تعلّم حفصة حقيقة الحجاب الصّحيح ، وكيفية اللباس الشّرعي للمرأة المسلمة .

* أخرج ابن سعد بسنده عن علقمة بن أبي علقمة عن أمّه قالت :

رأيتُ حفصةَ بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، دخلتْ على عائشة ـ رضي الله عنها ـ وعليها خمار[1] رقيق يشفُّ عن جَبينها ، فشقّقته عائشة عليها وقالت :

أما تعلمين ما أنزلَ اللهُ في سورة النُّور ؟ .

ثم دعت بخمارٍ فكستها[2] . وكان الخمارُ كثيفاً .

وربّما كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقصد قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن ... ﴾ [النور : ٣١] .

والتزمتْ حفصة رحمها الله باللباس الذي أوصتها به أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ في فقه لباس المرأة .

* ويتوقف التّاريخ ، فلا يحدثنا عن وفاةِ حفصة بنت عبد الرحمن ، ولا يشيرُ إلى زمن وفاتها . ولكنّه ترك لنا من مروياتها ما جعلها تعيشُ أبد

---

(١) كان من ألبسة النّساء « الخمار » ، والخمار كما قال ابن منظور في « اللسان » : « هو ما تغطي المرأة به رأسها . وقال الجوهريّ في « الصّحاح » : الخمار للمرأة . ولبست عائشة ـ رضي الله عنها ـ ملحفة مورّسة وخماراً حبشانياً . وفي الحديث الشّريف أنّ النبيّ ﷺ قال لابنته : « خمّري عليك تخرّك » أي أمرها أن تغطيه بخمارها .

(٢) الطبقات (٨/٧٢) .

الدهر في أذهان العلماء والمحدثين .

• رحم الله حفصةَ ، وأسكنها أعالي الجنان .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

نائلة بنت الفرافصة

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٤)

نائلة بنت الفرافصة

• زوجة الخليفة عثمان بن عفان ، شاعرة ، فصيحة ، خطيبة ، وفية ، مستجابة الدعوة .

نَائِلَةُ بِنْتُ الفَرَافِصَة

مِنَ البَادِيَةِ إِلى المَدِينَةِ :

* لم تكنْ هذه المرأة معروفةً في صدر الإسلام إلا بين أهلها وعشيرتها الأقربين ، وذلك في بادية قرب الكوفة . ولكنَّ رحلةَ الشُّهرةِ معها ، بدأتْ من ذلك اليوم الذي أصبحت فيه زوجة للخليفة الرّاشد سيدنا عثمان بن عفان ، عليه سحائب الرضوان .

* أمّا كيف انتقلت من بادية السَّماوة[1] إلى المدينة المنوّرة ، فتلك قصة شائقة تكفّل بروايتها الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ ، وغيره من ثقات المؤرخين .

* تقول القصة :

إنَّ سعيد بن العاص الأمويّ[2] ـ وهو أميرٌ على الكوفة لعثمان ـ قد تزوّج امرأة من بني كَلْب تُدعى « هند بنت الفَرافِصة بن الأحوص

---

(١) « السَّماوة » : موضع بين الكوفة والشام ، وهي برية معروفة .

(٢) من الجدير بالذكر ، أنَّ سعيد بن العاص هو أحد مَن تدبه سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ لكتابة المصحف لفصاحته ، وشبه لهجته بلهجة رسول الله ﷺ ، انظر صحيح البخاري (١٤/٩) في فضائل القرآن . وكان سعيد فصيحاً شريفاً جواداً حليماً وقوراً ، ذا حزم وعقل ، وهو ممن اعتزل الفتنة فأحسن ، توفي سنة (٥٩ هـ) ـ رضي الله عنه ـ .

الكلبيّ » ، فبلغ ذلك سيدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ، وكان عثمان يعلم أنّ سعيداً صاحب عقل كبير ، ورأي سديد ، واختيار رشيد ، فكتب إليه :

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أمّا بعد : فإنّه قد بلغني أنّك تزوّجت امرأة من كلْب ، فأخبرني عن حَسَبِها وجمالها ، واكتب إليّ في ذلك .

فكتب إليه سعيد بأوجز لفظ ، وأوفى معنى ، فقال : أمّا حسبُها ؛ فإنّها بنت الفَرافِصة[1] بن الأحوص . وأمّا جمالها ؛ فإنّها بيضاء مديدة ـ طويلة ـ والسّلام .

عندئذ كتب عثمان إلى سعيد : إنْ كان لها أخت فزوّجنيها .

واستجاب سعيدٌ ، وسرعان ما دعا الفَرافصة ـ والد زوجه ـ وأبلغه رغبة عثمان وقال له : زوّجْ أميرَ المؤمنين .

فقال الفَرافصة لابنه ضبّ : ـ وكان ضبٌّ مسلماً والفرافصة نصراني ـ : زوّج أختك أمير المؤمنين فأنت على دِينه .

عند إذٍ زوّج ضبٌّ أختَه نائلة بنت الفرافصة ـ وكان وليّها ـ ،

---

(١) « الفُرافص » : بالضّم : الأسد الشّديد الغليظ كالفُرافصة . والسّبع الغليظ ، والرّجل الشّديد البطش .

و « الفَرافص » : بالفتح : رجل (القاموس المحيط) .

وجاء في « لسان العرب » أنّ كلّ ما في العرب فُرافصة بضم الفاء ، إلا فرافصة أبا نائلة امرأة عثمان ـ رضي الله عنه ـ بفتح الفاء ليس غير . (اللسان : مادة فرفص) .

وحملها إلى عثمانَ أمير المؤمنين في المدينةِ المنوّرة[1] .

* * *

نَائِلَةُ وَوَصِيَّةُ وَالِدِهَا :

* كان للأولياء وصاياهن العامرة بالحكمة والبلاغةِ عند زفاف بناتهن إلى أزواجهن ، وقد سجّلت كُتُب المصادرِ وصيةَ الفرافصة لابنته نائلة حين جهّزها إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ فقد قال لها لما أرادوا حملها إليه :

يا بنيـة ، إنّكِ تَقدّمين على نسـاء قريش ، وهنّ أقدرُ على الطِّيْبِ منك ، فاحفظي عني خصلتين : الكحل والماء ، فتكحّلي وتطيّبي بالماء حتى يكون ريحك ريح شنّ ـ قربة صغيرة ـ أصابه المطر .

* ووجدت نائلة في هذه الوصيّة[2] الخفيفة اللطيفة بغيتها ، فكانت كما أوصاها والدها تعمل على النّظافة الكاملة ، وكانت عاقلةً نبيلةً ، فلما

(١) عن تـاريخ دمشق (ص ٤٠٦) بتصرف ، وانظر نسب قريش (ص ١٠٥) ، والموشى (ص ٢٢٤ و ١٢٥) .

(٢) إنّ استحبابَ وصيـة الزّوجة نبيةً حَسَنٌ وجميلٌ ، فقد قال سيّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ : كان أصحابُ رسول الله إذا زفّوا امرأة على زوجها يأمرونها بخدمة الزّوج ورعاية حقه .

وتعطي الوصايا للزّوجات صفحات تاريخنا الوضيء ، منها وصايا نثرية ، وأخرى شعرية من ذلك ما أوصى به عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ابنته فقال لها :

إياكِ والعبرة ، فإنها مفتاحُ الطّلاق ،

وإياكِ وكثرة العتب ، فإنه يورثُ البغضاء ،

وعليك بالكحل فإنه أزين الزّينة ، وأطيب الطّيب الماء .

قدمت على سيّدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ أُعجب بها وبفصاحتها وحسن أدبها ، فمسح رأسها ، ودعا لها بالبركة ، فكانت من أحبّ نسائه إليه ، وقد أثمر هذا الزّواج فولدت له طفلة يُقال لها : مريم بنت عثمان[1] .

* وقد امتدح عثمان ـ رضي الله عنه ـ نائلة بقوله : ما دخلتُ على امرأة أوفى عقلاً منها ، ولا أحرى أنْ تغلبني على عقلي[2] .

* هذا وقد بلغتْ نائلة ـ رحمها الله ـ مكانة كبيرة عند عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، وأحبَّ فيها تلك الخصال الحميدة التي قلَّ أنْ تتوفرَ في امرأةٍ غيرها من بيئتها . ولهذا عرف النّاسُ قَدْرها عند عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، روى ابن سعد في « الطّبقات » والبلاذري في « أنساب الأشراف » أنّ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ كان يلبس مطرف خزٍّ

= وقال أحد الأزواج لزوجته :

خذي العفوَ مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سَورتي حين أُغضبُ

ولا تكثري الشّكوى فتذهب بالقوى ... ويأباكِ قلبي والقلوب تقلّبُ

وهل أتاك نبأ وصية أبي الدّرداء لامرأته إذ قال :

إذا رأيتني غضبتُ فرضّني ،

وإذا رأيتُكِ غضبى رضيتُك ،

وإلا لم نصطحبْ .

ومثل هذا كثير في بطون الكتب ، ويصعب استقصاؤه ، ولكنّ الوصايا جميعها تنبع من معين واحد ، وهو المحافظة على الودّ من كلا الزّوجين .

(١) انظر عيون الأخبار (٤/٤٦ و ٧٦) ، والأغاني (١٥/٦٧) ، والبداية والنهاية (٧/٢٣٠) بتصرف يسير .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري (٥/٢٩٢) .

ثمنه مئة دينار ـ أو مئتي درهم ـ فقال : هذا لنائلة كسوتها إياه ، فأنا ألبسه لأسرّها به . وكان أصحاب الرّسول ﷺ يوسّعون على نسائهم في اللباس الذي يُصان ويتجمّل به .

* ومنذ تلك الأيام ، وعلى وجه التّحديد في سنة ثمان وعشرين[1] من الهجرة ، ـ وهي السّنة التي تزوّج فيها عثمان نائلة ـ بدأت شهرتها تعلو في الأفق ، وتأخذ مكانتها بين النّساء الشّهيرات ، وبدأ التّاريخ ابتداء من زواجها ، يسجّل لها أنصع الصّفحات ، وأجمل الصّفات في مواطن الوفاء والفصاحة والبلاغة ، وكمال الخصال الحميدة ، فكانت بذلك تابعية جليلة القَدْر ، عظيمة الأثر ـ رحمها الله ـ .

* * *

تِلْمِيذَةٌ مُوَفَّقَةٌ :

* منذ أنْ عاشت نائلة في المدينة ، أخذت تتردّد على عائشة أمّ المؤمنين ، فروت عنها ، كما روت عن زوجها عثمان ـ رضي الله عنه ـ .

* وقد روى عن نائلة : النّعمان بن بشير الأنصاري ، وأمّ هلال بنت وكيع وغيرها .

* ومن مرويّات نائلة ـ رضي الله عنها ـ قالت : أمّنّا عائشة في صلاة فقامت وسطنا[2] .

---

(١) الكامل في التاريخ (٣/٩٨) .
(٢) الطبقات (٨/٤٨٣) .

* وخلال حياتها مع عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ ، كانت خير زوجة ناصحة أمينة له ، وكانت حريصة على مصافاته ومواتاته ، واستخلاص نفسها له ، فأحلّها عثمان من نفسه المكان الرّحب ، فكُتب لها الخلود ، وكانت إحدى اللواتي ذهب الدّهرُ بمقالاتهن ومقاماتهن في المواقف المحمودة .

* * *

نَائِلَةُ تَفْدِي عُثْمَانَ :

* كان لنائلة موقفٌ ـ يوم الفتنة سنة ٣٥ هـ ـ يدلُّ على مروءتها وإيثارها ، إذ أنه لما تسوَّر الثّائرون في المدينة على زوجها عثمان ـ رضي الله عنه ـ وتبادروه بالسُّيوف ، ألقت نائلة بنفسها عليه حتى تكون له وقاءً من الموت ، وضربه أحدهم بالسَّيف ضربةً أصابته وأصابت يده ـ وبين يديه المصحف ـ فقال ـ رضي الله عنه ـ : والله إنّها أول يدٍ كتبتِ المفصّل ، فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية : ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم ﴾ [البقرة : ١٣٧] .

ثم جاء رجل آخر من الثّائرين شاهراً سيفه ، فاستقبلته نائلة لتمنعه من زوجها ، وأخذتِ السَّيف فانتزعه منها فقطع أصابعها ، وفُصلتْ عن يدها ، ثم ضرب زوجها عثمان ضربةً نفذت إليه فمات شهيداً مظلوماً ـ رضي الله عنه وأرضاه[1] ـ ؛ وكان ذلك في ضحوة يوم الجمعة ، فلم

---

(١) عن البداية والنهاية (١٩٧/٧) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٤٥٥/٣) بشيء من الاختصار والتصرف .

يقدروا على دفنه نهاراً من الغوغاء .

* وذرفت نائلة الدّمع سخياً على عثمان ، وأبتْ إلا أنْ تشارك في دفنه ، والصّلاة عليه ، فقد ذكرتِ المصادرُ في هذا أنّها خرجت ليلة دُفن عثمان ومعها السّراج ، وهي تهتف : واعثماناه ، وأمير المؤمنيناه ! .

فقال لها جُبير بن مُطْعم ـ رضي الله عنه ـ : أطفئي السّراج حتى لا يُقطن بنا ، فقد رأيتِ الغوغاء عند الباب ؛ فأطفأتِ السّراج ، ثم انتهوا إلى البقيع فصلّى عليه جُبير بن معطم ، وخلفه حَكيم بن حزام ، وأبو جهم بنُ حُذيفة ، ونيار بن مكرم ، وزوجتا عثمان نائلة وأمّ البنين بنت عُيينة بن حصن ، وهما دلّتاه في حفرته على الرّجال الذين نزلوا في قبره حتى دُفنَ ولحدوا له ، وغمّوا قبره وتفرّقوا(١) .

* * *

مِنْ مَحاسِنِ الوَفاءِ :

* لقد كان لوفاءِ نائلة ـ رحمها الله ـ كبير الأثر في تاريخ حياتها المعطاء ، وضربت أنْصَعَ الأمثلة وأجملها في وفائها لعثمان بعد عفاء أثره ؛ واستشهاده ، حيث كانت بذلك عديل وفائها له وهي بين أفياء نعمته وأكناف داره ، وكان إيثار الإسلام له بمدّ حدادها عليه أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا تتجمّل في أثنائها ، ولا تزدان ، ولا تفارق داره إلى دار أبيها ، سُنّة من سُنَنِ هذا الوفاء ، وآية من آياته الرّائعة .

---

(١) عن تاريخ دمشق (ص ٤٠٩) ، وتاريخ الإسلام (٤٨١/٣) بتصرف يسير .

* وكانت نائلة ـ رحمها الله ـ ، ترى الوفاء لزوجها بعد استشهاده آثر وأعظم مما تراه لأبيها وأخيها وأمّها وذوي قرابتها ، فكانت تؤثر فضائله ، وتذكر شمائله في كلّ موطن ومقام ، حتى في موقفها يوم قتله حيث قالت وقت إذ : لقد قتلتموه وإنّه ليحيي الليلةَ بالقرآن في ركعة .

* ومع أنّ رغبةَ الأيّمَ عن الزّواج ، وكراهيتها له ، واعتكافها دونه لم يكن من مبادىء الإسلام في شيء ، فإنّ كثيراً من الأيامى أبَيْنَ أنْ يتبدلن ببعولتهن زوجاً آخر ، وفاء لهم ، وإبقاءً على ذكراهم ، وفي مقدمة هؤلاء النّسوة تذكر نائلة بنت الفرافصة .

* * *

دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ :

* روتِ المصَادر الموثوقة كرامةً لنائلةَ ـ رحمها الله ـ ، ولعلّ هذه الكرامة قد نالتها ببركة صِدْقِها وببركةِ سيّدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ فقد روى ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ عن بعض أشياخه من بني راسب . قال :

كنتُ أطوف بالبيتِ ـ الكعبة المشرفة ـ فإذا رجلٌ أعمى يطوف بالبيت وهو يقول : اللهم اغفر لي ، وما أراك تفعل ! .

فقلتُ : أما تتقي الله عزّ وجلّ ؟ .

قال : إنّ لي شأناً ، آليتُ أنا وصاحب لي لئن قُتلَ عثمان لنلطمن حُرّ وجهه ؛ فدخلنا عليه وإذا رأسه في حجر امرأته ابنة الفرافصة ، فقال لها صاحبي : اكشفي عن وجهه .

قالت : لِمَ ؟ .

قال : ألطمُ حُرَّ وجهه .

فقالت : أمَا ترضى ما قال فيه رسول الله ﷺ ؟ قال فيه كذا ، وقال فيه كذا ! .

فاستحيا صاحبي فرجع .

فقلتُ لها : اكشفي عن وجهه .

قال : فذهبتْ تعدو عليّ ، فلطمتْ وجهه .

فقالت : مالك ؟! يبّس الله يدك[1] ، وأعمى بصرك ، ولا غفر لك ذنبك .

قال : فوالله ما خرجتُ من الباب حتى يبستْ يدي ، وعمي بصري ، وما أرى الله يغفر لي ذنبي[2] .

قال محمد بن سيرين[3] ـ رحمه الله ـ : وقد رأيتُ يَدَ الرّجل يابسة كأنّها عود .

---

(١) وفي رواية أنها قالت له : أشلّ الله يمينك ، وصَلّى وجهك بالنار .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٤١٠) .

(٣) محمّد بن سيرين الأنصاريّ ، أبو بكر : ثقةٌ ، ثبْتٌ ، عابدٌ ، كبيرُ القَدْر ، تابعيٌّ من أشراف الكتّاب ، ولد بالبصرة سنة (٣٣ هـ) ، وكان إمام وقته في علوم الدّين بالبصرة ، نشأ بزازاً في أذنه صمم ، وتفقّه وروى الحديث ، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا ، وله كتاب « تفسير الأحلام » صدر عن دار ابن كثير . توفي سنة (١١٠ هـ) ـ رحمه الله ـ . (تقريب التهذيب : ٢/١٦٩) ، و (الأعلام : ٦/١٥٤) .

* وهكذا استجيبت دعوة نائلة التي لم يكن بينها وبين الله حجاب ، وما كان ليضيع أجرَ هذه الصَّابرة التي سدَّدَ خطاها على الحَقِّ ، واستجابَ دعوتها فيمن نال من زوجها وظلمه وهو ميّت .

* * *

مَلامِحُ مِنْ فَصاحَتِها وبَلاغَتِها :

* لا شكَّ بأنَّ نائلةَ بنتَ الفَرافصة كانت من أفصح النِّساءِ قولاً ، وأذكاهن قلباً ، وأكملهن خلقاً ، فقد نشأت نشأة الفصحاء في البادية ، ومن ثمَّ عاشت في قريش سادة الدّنيا في الفصاحة والبلاغة ، ناهيك بأنَّ زوجها عثمان كان من البلغاء الفصحاء ، وقد عزّزت فصاحتها بفيضٍ من القرآن الكريم ، ورفدت بلاغتها بجمال السُّنّة المطهّرة من الحديث النّبويّ الشّريف .

* ولعلّ الكلمات التي أثرت عن نائلةَ تدلُّ على ما نقول ، ولنقرأ سوياً فِقْراتٍ كاشفةٍ من رسالتها إلى معاوية ، تلك الرسالة التي بعثتْها مع أصابعها الممزّقة[1] ، وقميص عثمان المخضّب بالدماء ، فمن كلماتها الآسرة المؤثرة قولها :

من نائلةَ بنتِ الفرافصة إلى معاويةَ بنِ أبي سفيان . أمّا بعد :

فإنّي أذكّركم بالله الذي أنعم عليكم ، وعلّمكم الإسلام ، وهداكم من

---

(١) كانت إصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام وشيء من الكف . (الكامل : ٢٧٧/٣) .

الضّلالة ، وأُنقذكم من الكفر ، ونصركم على العدو ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة ، وأنشدكم الله ، وأذكركن حقّه ، وحقّ خليفته الذي لم تنصروه ، وبعزمة الله عليكم فإنّه قال : ﴿ وإنْ طائفتان منَ المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإنْ بغتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمْرِ الله ... ﴾ [الحجرات : ٩] .

وإنَّ أميرَ المؤمنين بُغيَ عليه ، ولو لم يكن لعثمانَ عليكم إلا حقّ الولاية ، لحقّ على كلّ مسلم يرجو إمامته أنْ ينصره ، فكيف وقد علمتم قدمه في الإسلام ، وحُسْن بلائه ، وأنّه أجاب الله وصدّق كتابه ، واتبع رسوله ، والله أعلم به إذ انتخبه ، فأعطاه شرف الدّنيا ، وشرف الآخرة .....

ثم تتابع نائلة بقية رسالتها ، فتروي مشاهدتها لمقتل عثمان بأسلوب مؤثر بليغ ، موجز اللفظ ينبيءُ عن تمكنها من ناصية الكلام .

* وكانت نائلةُ ـ رحمها الله ـ بالإضافة إلى حسن ترسلها في الكتابة وبلاغتها في فن الخطاب ، من أعمق النّساء تأثيراً في نفوس سامعيها ، وذلك لمقدرتها على الخطابة ، ووضع الكلام في مواقعه من نفوس سامعيه ، وتحريك مشاعرهم ، فعقب مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، غدتْ في أطمارها ، ومعها نسوة من قومها وغيرهن ، وتوجهت إلى مسجد رسول الله ﷺ ، فاستقبلتِ القبلةَ بوجهها ، ووجهت إحدى النّسوة تستنهضُ النّاس لها ، فتقوضتِ الحِلَقُ نحوها وقد سُدِلَت ثوبَها على وجهها ، وألقتْ كمّها على رأسها حتى آذنوها باجتماع النّاس ،

ومن ثمَّ حمدت الله عزَّ وجلَّ وأثنت عليه ، وصلّت على النَّبيِّ ﷺ ثم قالت :

عثمانُ ذو النّورين ، قُتل مظلوماً بينكم بعد الاعتذار ، وإن أعطاكم العتبى ، معاشر الطائفة المؤمنة وأهل الملة ، لا تستنكروا مقامي ، ولا تستكثروا كلامي ، فإنّ حرّى عَبْرى رُزئت جليلاً ، وتذوقت ثكلاً من عثمانَ بنِ عفان ، ثالث الأركان من أصحاب رسول الله ﷺ في الفضل عند تراجُعِ النّاس في الشّورى يوم الإرشاد .. ..

وهي خطبة طويلة قالت في أواخرها :

يا هؤلاء : إنّكم في فتنةٍ عمياء ، صمّاء ، طباق السّماء ، .. .. .. فلهواتُ الشّر فاغرة ، وآيات السُّوءِ كاشرة ، .. .. .. ولئن نكرتم أمْر عثمان لتنكرن غير ذلك من غيره حين لا ينفعكم عقاب ، ولا يسمع منكم استعتاب ..

ثم أقبلتْ بوجهها على قبر النّبيِّ ﷺ فقالت : اللهم فاشهد ، ثم انصرفتْ باكيةً مسترجعة ، وتفرّق النّاس مع انصرافها وهم واجمون ، وقد تأثروا بخطبتها ، وحزنوا لمصابها .

* * *

نَائِلة ونَفَثَاتٌ مِنَ الشِّعْرِ :

* لئن أبدعت نائلة في البلاغة وحُسْن الخطاب ، فقد حلّقت عالياً في سماء الشّعر ، وتركت ثروةً شعرية لطيفة جلّها في الوجدانيات

والرّثاء ، من ذلك كراهيتها للغربة وحزنها لفراق أهلها ، فقالت تخاطب أخاها ضبّ بن الفرافصة ـ وقد تولّى أمْرَ زواجها ـ عندما حملها إلى عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ :

ألستَ ترى يا ضبّ باللهِ أنني
مصاحبة نحو المدينة أركبا
إذا قطعوا حزناً تحتّ ركابهم
كما زعزعت ريحٌ يراعاً مثقبا
لقد كان في فتيان حصن بن ضمضم
وجدّك ما يغني الحباء المحجبا
أبى الله إلا أن تكوني غريبة
ببثربَ لا تلقَيْنَ أمّاً ولا أبا

* ومن أبدع شعرها ما قالته في رثاء زوجها عثمان ـ رضي الله عنه ـ :

ألا إنّ خير النّاس بعد ثلاثة[1]
قتيل التُجيبي[2] الذي جاء من مصر

---

(١) « ثلاثة » : تريدُ رسولَ الله ﷺ ، وأبا بكر الصّديق ، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ومن رثى سيدنا عثمان فأبدع حسان بن ثابت فقال :

فقلتم وليّ الله في جوف داره ... وجئتم بأمرٍ جائرٍ غير مهتدي
فلا ظفرتْ أيمانُ قومٍ تعاونوا ... على قتل عثمان الرّشيد المسوّدِ

(٢) ذكر الطّبريّ أنّ الذي قتل عثمان هو كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي .

وما لي لا أبكي وتبكي قرابتي
وقد غُيِّبَتْ عنا فضُول أبي عمرو[1]

• ولنائلة ـ رحمها الله ـ شعرٌ جميل يبعثُ من وجدانها ، ومن أعماق قلبها ، فقد وقفت بعد مقتل عثمان حيال قبر النَّبيّ ﷺ وقالت :

أيا قَبْرَ النَّبيِّ وصاحبيه
عذيري إنْ شَكوتُ ضياع ثوبي
فإني لا سبيلَ فتنفعوني
ولا أيديكم في منع حوبي

* وبعد ، فهذه نائلة بنت الفرافصة ، مضرب المثل في الوفاء ، وذات الرأي والشَّجاعة ، والحكمة والبلاغة ، عشنا مع سيرتها تمتع الأسماع ، وتؤنس القلوب ؛ فرحم الله نائلة ، وأجزل مثوبتها ، وأنالها مرادها ، وجمعها في الجنة مع عثمان ، إنه سميع مجيب .

* * *

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٠٦) ، والموشى (ص ١٢٦) ، وشاعرات العرب (ص ٤٤٠) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الثاني

سكينة بنت الحسين

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٢)

سُكينة بنت الحسين

* قال الإمام النووي :

كانت سُكينة من سيدات النساء ، وأهل الجود والفضل .

* شاعرة ، فصيحة ، راوية للحديث النبوي الشريف ، ناقدة للشعر .

سُكَيْنَةُ بِنْتُ الحُسَيْنِ

السَّيِّدَةُ الهَاشِمِيَّةُ :

* في رحاب البيت النَّبويّ نشأت آمنةُ بنت الحسين بن عليّ بن أبي طالب[1] ، ولما كانت في مراحل طفولتها ، بدت ذات ملامح حلوة ، ونظرات ذكية ، عندئذ لقّبتها أمّها باسم سُكينة ، وغلب عليها هذا اللقب ، وغدت لا تُعرف إلا به .

* وكانت أمُّ سكينة ، واسمها الرّباب بنت امرىء القيس الكلبيّة[2] ، من خيار النّساء وأفضلهن ، وقد ولدت للحُسين بن علي عبد الله ـ وبه يكنى ـ وسُكينة التي نتحدث عنها في هذه الصّفحات .

* وكان سيّدنا الحسين ـ رضي الله عنه ـ يأنسُ إلى طفلته سُكينة ، التي كانت مَبْعث الأنس له ، ومنبع الحنان ، وكان كذلك يسكن إلى أمّها الرّباب التي كانت تُغيْرهُ كلَّ رعاية واهتمام . ويبدو أنَّ الحسينَ عُوتب من أقاربه في اهتمامه المفرط بسكينة والرّباب ، فقد روى أهل الأخبار عن سكينة أنّها قالت :

---

(١) نسب قريش (ص ٥٩) ، والمعارف (ص ٢١٣) ، ووفيات الأعيان (٢/٣٩٤) .

(٢) اقرأ في هذا الكتاب سيرة الرباب بنت امرىء القيس ، ففي سيرتها بعض الأخبار الهامة لحياة المرأة في عصر التابعين .

عائبَ عمّي الحسن بن عليّ أبي في أمّي ، فقال :

لعمـــــركَ إنّـــي لأحبُّ داراً
تكـــون بهـــا سُـكينـــة والرّبـــابُ
أحبُّهـــمـــا وأبـذلُ جُـلَّ مـــالي
وليس للائمي فيهـــا عتـــابُ
ولستُ هـــم وإنْ عتبـــوا مطيعـــاً
حيـــاتي أو يغـــيّبـــني التُّـــرابُ[1]

* ولمـا شبت سُكينة ، أضحتْ في المجتمع القرشيّ من سيّدات النّساء ، وحظيت بالشّهرة العالية التي لم تلحقْ بها امرأة في عصرها ؛ لِمَا اشتهرت به من حُسْنٍ وأدب وعلْم ، فملأتِ الدّنيا وشغلتِ النّاس .

وفوق هذا وذاك ، كانت من التّابعيات اللواتي حفظن حديثَ رسول الله ﷺ وروينه ، وكيف لا ؟ وهي حفيدة الزّهراء وسليلة بيت النّبوّة الطّاهر الكريم ؟ ! .

• والقَدْرُ الذي وعاه لنا تاريخها في الرّواية أنّها حدّثت عن أبيها الحسين بن علي[2] ـ رضوان الله عليهما ـ .

* أمّا من روى عنها الحديث فهو فائد المدني[3] مولى عبيد الله بن أبي رافع ، كما روى عنها أهل الكوفة .

---

(١) نسب قريش (ص ٥٩) ، ومقاتل الطالبيين (ص ٩٤) ، والبداية والنهاية (٢١١/٨) وشذرات الذهب (٨٢/٢) ، ونور الأبصار (ص ١٩٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦٢/٥) .

(٣) فائد مولى عبيد الله بن علي بن أبي رافع المدني مولى النبيّ ﷺ ، روى عن سُكينة =

* فمن مروياتها ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن فائد مولى عبيد الله بن رافع قال :

حدثتني سُكينة بنت الحسين بن عليّ ، عن أبيها قال : قال رسول الله ﷺ :

« حَمَلَةُ القرآن عرفاء أهل الجنّة »[1] .

* * *

مَهْرُ سُكَيْنَةَ :

• إذا كان الشَّباب والجمال من الصِّفات المرغوبة في الرّجل والمرأة ، فإنّهما لا يغنيان عن صفاتٍ أخرى مطلوبة في كلّ واحد منهما .

* فقد كانت سكينة امرأة صالحة ، ذات خلق قويم كريم ، يزينُها أدبٌ وحياءٌ وعلم ، ويحلّيها ذكاءٌ وفهم وحسن .

قال عنها الإمام الذّهبيّ : كانت شهمة مهيبة[2] .

= بنت الحسين ، وعن مولاه عبيد الله ، وإبراهيم بن عبد الرحمن ، وغيرهم . وروى عنه كبار العلماء والتابعين . وفائد المدني تابعيٌّ ثقةٌ صدوقٌ ، وقد وثّقه يحيى بن معين ، وذكره ابن حبّان في الثّقات .

(تهذيب التهذيب : ٨/٢٥٦ و ٢٥٧) و (تقريب التهذيب : ٢/١٠٧) .

(١) تاريخ دمشق (ص ١٥٥) .

(٢) إن اختيار الرّجل مثل هذا المرأة النّبيلة من أجل إحسان الأدب للأولاد الذين تنجبهم ، وبها يمنُّ عليهم ، وفي هذا يقول أبٌ لأولاده :

وأولُ إحسانٍ إليكم تخيّري ... لماجدة الأعراق بادٍ عَفَافُها

كما أنها جمعت المجد من جميع جوانبه ، ويكفيها فخراً أنّ والدها الحسين سِبْط النّبيّ ﷺ وريحانته ، وسيّد شباب أهل الجنّةِ في الجنّةِ .

• وخطبها مصعبُ بن الزُّبير بن العوّام ؛ الذي وصفه ابن كثير بقوله : كان من أحسنِ النّاس وجهاً ، وأشجعهم قلباً ، وأسخاهم كفاً .

• وكانت لمصعب أمنية قديمة جداً في سُكينة ، إذ تمنى أن يكون والياً على العراق ، وأنْ يتزوّج من عائشة بنت طلحة[1] ـ فكان ذلك ـ وأن يتزوج سكينة ابنة الحسين ، فقد آنَ الأوان ، فها هو والٍ لأخيه على البصرة ، ويرشحه ـ لمصاهرة آل الحسين ـ كَرَمُ أصْله ، فهو ابن الزّبير[2] فارس النّبيّ ﷺ وحواريّه وابن عمته ، وأحد العشرة المبشّرين بالجنّة ، أضفْ إلى ذلك اكتمال مروءته وشهامته التي عُرف بها مصعب

(١) اقرأ بتوسع سيرة عائشة بنت طلحة في هذا الكتاب .

(٢) من الفوائد الهامة هنا ما رواه هشام بن عروة عن أبيه قال :
قال الزّبير بن العوّام ـ رضي الله عنه ـ : إنّ طلحة بنَ عبيد الله يُسمّي بنيه بأسماء الأنبياء ، وإنّي أسمي بنيّ بأسماء الشّهداء ؛ لعلهم يُستشهدون :
ـ عبد الله : بعبد الله بن جحش .
ـ والمنذر : بالمنذر بن عمرو .
ـ وعروة : بعروة بن مسعود .
ـ وحمزة : بحمزة بن عبد المطلب .
ـ وجعفر : بجعفر بن أبي طالب .
ـ ومصعب : بمصعب بن عمير .
ـ وعبيدة : بعبيدة بن الحارث .
ـ وخالد : بخالد بن سعيد .
ـ وعمرو : بعمرو بن سعيد بن العاص قُتل باليرموك . رضي الله عنهم جميعاً .

بين أقرانه ، وشجاعته التي يتحدث عنها أهل العراق وأهل الحجاز ، ومَنْ بالعواصم .

* وتَمّت خطبة مصعب لِسُكينة ، وأمهرها مليون درهم ، كما أمهر ضرّتها عائشة بنت طلحة مليون درهم أيضاً ، ولعلّ هذا المهر العالي ظلّ حديث النّاس يومذاك ، وكان أثره واضحاً في الحجاز والعراق ، حتى إنّ أنس بنَ زُنَيْم الدِّئليّ[1] نَفَثَ ما بصدره لأخي مصعب عبد الله بن الزُّبير في هذا المهر العالي فقال :

أبلغْ أميرَ المؤمنين رسالة
مِنْ ناصحٍ لك لا يريد خداعا
مَهْرُ الفتاة بألف ألفٍ كامل
وتبيتُ سادات الجيوش جياعا
لوْ لأبي حفصٍ أقولُ مقالتي
وأقصُّ شأنَ حديثهم لارتاعا[2]

* ووافق عبدُ الله بن الزبير أنس بن زنيم على شعره وقال : صدق والله أنس ، لو قيلتْ هذه المقالة لأبي حفص ـ كنية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ لارتاع من تزويج امرأةٍ على ألف ألف ؛ غير أنّ مصعباً لم يكتفِ بهذا ، بل تقول الرّوايات : إنّه أعطى أخاها عليَّ بنَ الحسين

(١) هو أنس بن زنيم بن عمرو الكناني : شاعر ، من الصحابة . نشأ في الجاهلية . ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ فأهدر دمه ، فأسلم يوم الفتح ومدح رسول الله بقصيدة فعفا عنه . عاش إلى أيام أمير العراق عبيد الله بن زياد . توفي نحو سنة (٦٠ هـ) .

(٢) المعارف لابن قتيبة (ص ٢٢٣) .

أربعين ألف دينار لما حملها إليه ، وولدت له ابنة أسمتها الرَّباب .

* وفي حياتها مع مصعب سطع نجمها أكثر في عالم النساء ، وحظيت بالشهرة الواسعة في الأمصار ، ومع أنَّ سكينة تعدُّ إحدى نوادر الجمال في عصرها ، كانت تزيد إلى جمالها حُسْنَ الترتيب والعناية بشَعْرِها وتصفيفه ، فقد كانت من أحسن النَّاس شَعْراً ، وكانت تصفِّفُ جمّتها تصفيفاً لم يُرَ أحسن منه ، حتى عُرِفَ ذلك ، وكانت تلك الجمّة تسمى « السُّكينيّة » ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلاً يصفِّف جمته « السَّكينية » جلده وحَلَقَه .

قال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » : والطُّرة السُّكينية منسوبةٌ إليها .

* * *

فِرَاقُ الحَبِيْبِ :

* كانتْ لمصعب مكانةٌ عظيمة عند سُكينة ، وكانت تخفي ما في قلبها من مصعب ، ففي حَرْبِهِ مع عبد الملك دخلَ إليها ، وقد نزع عنه ثيابه ، ولبس غِلالة[1] ، وتوشّح بثوب ، وأخذ سيفه ، فعلمتْ أنّه لا يريد أنْ يرجعَ ، فصاحت من خلفه : واحزناه عليك يا مصعب ، فالتفتَ إليها وقال : أوكل هذا لي في قلبك ؟ .

فقالت : أي والله ، وما كنتُ أخفي أكثر .

---

(١) « غلالة » : ثوب رقيق يُلبس تحت الدِّثار .

فقال : لو كنتُ أعلم أنَّ هذا كلّه لي عندك لكانت لي ولك حال .

ثم خرج ولم يرجع ، وقُتل بيدِ جنود عبد الملك بن مروان .

* وذكر ابن كثير نقلاً عن الخطيب البغداديّ أنَّ سُكينة كانت مع مصعب في الوقعةِ التي قُتل فيها ، فلما قُتل طلبته في القتلى حتى عرفته بشامةٍ في خدِّهِ ، فقالت : نِعْمَ بَعْل المرأة المسلمة كنتَ ، أدركك والله ما قال عنترة :

وخليل غانية تركتُ مجدلاً
بالقاع لم يعهدْ ولم يتثلَّمِ
فهتكتُ بالرُّمحِ الطَّويلِ إهابَه
ليس الكريم على القنا بمحرمِ[1]

* * *

رِثاؤها وفَصاحَتُها :

* ورثتْ سكينة قول الشِّعر عن أبيها الحُسين ـ رضي الله عنه ـ ، فقد كان يقول الشِّعر الجيّد ، كما كانت أمُّها الرَّباب بنت امرىء القيس من فصيحات النساء ، وشاعرات العرب ، ممن حلُقن عالياً في فنّ الرِّثاء ، رثتْ زوجها الحُسين حين قُتل بكربلاء بقولها :

إنَّ الذي كان نوراً يُستضاء به
بكربلاءَ قتيلٌ غيرُ مدفونِ

(١) البداية والنهاية (٨/٣٢٥) و « الإهاب » : الجلد ، والمعنى : الجسم .

سِبْطَ النَّبِيِّ جزاكَ اللهُ صالحةً
عنّا وجُنِبتَ خسرانَ الموازين
قد كنتَ لي جبلاً ألوذُ به
وكنتَ تصحبنا بالرِّحم والدِّين

* وكانت سُكينة ـ رحمها الله ـ لا تقلُّ جودة في الرِّثاء عن أمها ، فقد رثت زوجها مصعباً أحرَّ رثاء ، فقالت :

فإنْ تقتلوه تقتلوا الماجدَ الذي
يرى الموتَ إلا بالسُّيوف حراما
وقبلكَ ما خاضَ الحُسينَ منيّةً
إلى القومِ حتى أوردوه حِماما[1]

* ولكنَّ سكينة ، قُتل أبوها من قَبْلُ شهيداً ، فهل تركتْ هذه الحادثة تمضي دون أنْ تقول شعراً ؟ وسكينة ـ كما علمنا ـ إحدى فصيحات قريش وبني هاشم ، وهي ممن ذُللت لها قطوف البيان تذليلاً ؟ ! .

* لا شك أنها أرسلتْ دمعها مدراراً على أبيها ، وقد احتفظ « الزَّجَّاج » في أماليه ببضعة أبيات لها ، قيل إنها رثت بها أباها ـ رضوان الله عليه ـ ، نقتطف منها قولها :

لا تعذُليه فهَمُّ قاطعٌ طرفَهْ
فعينُه بدموعٍ ذُرِّفَ غَدِقَهْ

---

(١) شاعرات العرب (ص ١٦٤) .

إنَّ الحسينَ عَداةَ الطَّفِّ يرشقُه
ريبُ المنونِ فما أنْ يُخطىءِ الحَدَقَهْ
يا عينُ فاحتفلي طولَ الحياةِ دمَاً
لا تبكِ ولداً ولا أهلاً ولا رفَقَهْ
لكنْ على ابنِ رسولِ اللهِ فانسكبي
دمَاً وقيحاً وفي أثرَيْهما العَلَقَهْ

* ولعل لسكينة أثراً شعرياً آخر في مواقف أخرى ، وفي مختلف الأغراض ، إلا أنَّ كتبَ المصادر لم تحتفظْ بها ، بل اهتمت بتاريخها الأدبي ومكانتها في عالَم النَّقد ، وفي السَّيطرة الأدبية ، وما رزقته من ذوق في الشِّعر ، وإدراكٍ لمواطن تأثير الكلام .

* أمَّا عن فصاحتها وخطابتها ، فقد جاء في « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، وفي « العقد الفريد » لابن عبد ربّه ما يدلُّ على بلاغتها وحضور ذهنها ، ووضع الكلام في مواضعه بالوقت المناسب ، فعندما قُتل زوجها مصعب ، خرجت تريد المدينة المنورة ، فأطاف بها أهل الكوفة فقالوا : أحسن الله صحابتك يا بنت رسول الله .

فقالت : واللهِ لقد قتلتم جدّي ـ تقصد عليّاً رضي الله عنه ـ وأبي وعمّي ، وزوجي مصعباً . أيتمتموني صغيرةً ، وأرملتموني كبيرةً ، فلا عافاكم الله منْ أهل بَلَدٍ ، ولا أحسن عليكم الخلافة . ثم خرجت ويمّمت وجهها تلقاءَ المدينة المنوّرة .

* * *

سُكَيْنَةُ وعَبْدُ المَلِكِ :

* بعد مقتل زوجها مصعب بن الزُّبير خطبها عبد الملك بن مروان فقالت : والله لا يتزوّجني بعده قاتله أبداً .

* ثم تزوّجت عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام الأسديّ ، فولدت له حكيماً وعثمانَ ورَبيحة ، وكانت رملة بنت الزّبير أمّ عبد الله بن عثمان وأختُ مصعب سبياً لزواجها من ابنها عبد الله .

* ثم خلفَ عليها بعد موت عبد الله ، زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فشرطتْ عليه أن لا يمنعها شيئاً تريده ولا يخالفها في أمر تحبُّه ، فوافق على شروطها . ولما مات لم تتزوج بعده أحداً ، وبقيت في المدينة المنورة .

* * *

سَيِّدَةُ النَّاقِدِيْنَ :

* تكاد كتبُ المصادر ـ وخصوصاً كتب الأدب[1] منها ـ تغصُّ بالأخبار الكثيرة التي تشيرُ إلى مكانة سكينة في النّقد الأدبي ، وقد أفاضت هذه الكتب في ذلك ، وشرّقتْ وغرّبتْ وأتت بالغرائب أحياناً ، وزعموا بأنّها كانت سيّدة النّاقدين عصر ذاك ـ بلا منازع ـ فهي حَكَمُ الشُّعراء الذي لا يردُّ حكمه ، ولا ينقضُ قوله ، فكانوا يفِدُون على دارها

(١) انظر على سبيل المثال : عيون الأخبار (٤/٩٠) ، ومصارع العشاق (٢/٨٠ ـ ٨٤) ، والعقد الفريد (٥/٣٧٣) و (٦/٣٠ و ٤٨) ، والأغاني في مواضع متفرقة ، والمحاسن والمساوىء في مواضع أيضاً ، ودواوين الشعراء في عصرها .

مِنْ كلِّ حدبٍ وصوب ، وبعضهم يأتيها من مكان بعيد ، وكلُّهم عقد يده على خير ما قال ، وليس بينهم إلا مَنْ كان حديثه طول طريقه عما عسى سكينة أنْ تقوله وتحكم به ، لأنَّه سيكون بين أقرانه الفائز بالسَّبْق في حلبة الشِّعر .

* وروت كتُب الأدب والمصادر أيضاً بأنَّه اجتمع إليها ذات مرة : جرير ، والفرزدق ، وكثيِّر ، وجميل ، ونصيب ، فنقدت لكلِّ شعره ، وأخذت عليه مآخذه[1] ، ثم أثابتْ كلَّ واحد منهم بألف دينار ، فخرجوا بخمسة آلاف دينار ، وما كان الخليفة ـ يومذاك ـ ليعطيهم بما دون ذلك حتى يجمعوا فيه من الفضائل والكرامات ما تفرَّق في الأبرار ، وما تفرَّدَ في المقربين ، والكرام الكاتبين ، وما كان عند القادة الفاتحين ، والعلماء الزَّاهدين ! .

* ولكنْ من الإنصاف أنْ نقول :

إنَّ سكينةَ ـ رحمها الله ـ كانت بصيرة بأعطاف الشِّعر ، وقطاف الأدب ، ولُباب الفصاحة ، وكانت تمتلك ذوقاً في نقد الشِّعر ، وميزاناً عادلاً في وضع الكلام في مواضعه ، ولولا أنَّها كانت من نوادر عصرها بصراً بالشِّعر ، وفقهاً للعربية وبيانها ، لما اعترف لها التَّاريخ الأدبيّ بمثل تلك المكانة ، ولما ألقيت إليها مقاليد النَّقد الأدبي ، والتَّحكيم والموازنة بين الشُّعراء ، ولكنْ بحدود ، ودون أنْ تتخلَّى عن اعتزازها بشرفها العالي ، أو يزايلها وعيها لموضعها من بيت النُّبوَّة ، أضفْ إلى ذلك أنَّها ابنة الحُسين ـ رضي الله عنه ـ ، والويل كلَّ الويل لمن يخرج عن جادة

(١) انظر مثلاً هذا الخبر في تاريخ دمشق (ص ١٦٤ ـ ١٦٩) .

الصـــواب مع هذه السيدة الكريمة ؛ وخير ما يؤيد قولنا ، ما ورد أنّ الفرزدق الشّـاعر المعروف ، ذكر سكينة وشبب بها ، وعمر بن عبد العزيز والٍ على المدينة ، فأخرجه منها ونفاه ، فقال جرير في ذلك :

تقـــاكَ الأغـرُّ ابن عبـــد العـــزيز
بحقّـــكَ تنـــفـــي مَنَ المسجـــد

* * *

أدبُهَا وظَرْفُهَا وكَرَمُهَا :

* عُرفت سكينـة ـ رحمها الله ـ بأنّها من أطيب النّساء نفساً وأحلاهن روحاً ، فقد كانت تميلُ إلى الفكاهة وحبِّ النكتة ، وكانت ظريفة تحبّ الدّعابة والطّرافة التي تضفي على جوّها روح الخفّة والأُنس .

* قيل لها مرة : يا سُكينة ، أختك ناسكة وأنت مزّاحة ؟ .

قالت : إنّكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة ، وسميتموني باسم جدتي التي لم تدرك الإسلام[1] .

* ومن طريف ما روي عنها ، أنه لسعتها يوماً دَبرة ـ نحلة ـ فقالت لها أمّها : ما لك ؟ .

* فقالت : مرّتْ بي دُبيرة ، فلسعتني بأُبيرة ، فأوجعتني قُطيرة .

---

(١) تقصدُ أختها فاطمة بنت الحسين بن علي ، سميت باسمها جدتها فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ ، وزوج علي بن أبي طالب رضي الله عنه . واسم سكينة ـ كما أسلفنا ـ هو آمنة ، وسكينة لقب لها ، وسميت آمنة باسم جدتها آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ .

* وكانت سكينة مع مرحها كريمة ذات اليد ، تهين المال ، فكانت تعطي وتكرم من يأتيها ، وقد رؤيتْ مرة في الحجّ ترمي الجمار ، فسقطتْ من يدها الحصاة السّابعة ، فرمتْ بخاتمها الثّمين بدلاً من الحصاة ! .

* ومن أخبار جودها وكرمها ، أنّ أشعبَ الطّماع المشهور حجّ مرة ، فأمرتْ له بجملٍ قويٍّ يحمل أثقاله ، فأعطاه القيّم على أموالها جملاً ضعيفاً ، فمضى أشعب ، وشكاه إلى سكينة فأرضته ، وأعطته ما جعله يلهج لها بالدّعاء .

* * *

أخلاقُها وفخرُها :

* إنّ الجوانب الحذّية في حياةِ سُكينة ، تدلُّ على شرف أخلاقها ، وعلى مكارمها وخصالها الحميدة ، ويبدو أنّها كانت تعتزُّ كثيراً بنسبها العالي وشرفها الرّفيع ، وتستطيع بما أوتيت من فصاحة وبلاغة وبيان أنْ تؤكّد ذلك ، ومن الأخبار التي تشيرُ إلى هذا ، أنّ سكينة كانت في مأتم ، فقالت ابنةٌ لسيّدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ : أنا ابنةُ الشّهيد .

فسكتت سكينة ، ولم تعلّقْ على قولها ، وبعد قليل ، نادى المنادي للصّلاة من المسجد النّبويّ الشّريف ، ولما بلغ المؤذن إلى قوله : أشهد أنّ محمّداً رسولُ الله ، عندئذ التفتتْ سُكينة إلى ابنةِ عثمان وقالت : هذا أبي أو أبوك ؟ .

فقالت : لا أفخر عليكم أبداً[1] .

---

(١) عن أعلام النساء (٢/٢٢٣) بتصرف يسير جداً .

* ويبدو من الأخبار التي وصلتنا عن سُكينة أنَّ الفَخْر كان من أخلاقها ، لا تستطيع أنْ تتخلى عنه في لحظةٍ من اللحظات ؛ إذ كانت تقابلُ مَنْ تفاخره بذكْرِ رسول الله ﷺ ، وتقيم عليها الحجة دون أن تقلّلَ من مكانته .

* روي أنّها حجّتْ مرّةً مع ضرّتها عائشة بنت طلحة ، وكان مع عائشة ستون بغلاً عليها الهوادج والرّحائل ، فقال حادي عائشة مفتخراً :

عائشُ يا ذات البِغال السّتين
لا زلتِ ما عشتِ كذا تحجين

* فما كان من سُكينة ـ رحمها الله ـ إلا أنْ أمرت حاديها أنْ يردّ على هذا فقال :

عائشُ هذه ضرّةٌ تشكوكِ
لولا أبوها ما اهتدى أبوكِ

عندئذ أمرتْ عائشة بنت طلحة حاديها أنْ يكفّ عما يقول ، فكفّ ، وكفّتْ عائشة أدباً وإذعاناً لسيّدنا رسول الله ﷺ ، وإحقاقاً للحقّ والصّدقِ .

* * *

الأيّامُ الأخيرةُ :

* قضتْ سُكينة ـ رحمها الله ـ أكثر منْ نصفِ قرن ، وهي تتربعُ

على قمّةِ الشُّهرة ، وامتدَّ بها العمر حتى أطلّتْ على الثّمانين ، وفي مدينة رسول الله ﷺ وافاها الأجل ، ويحدّدُ ابنُ خلّكان تاريخ وفاتها بدقةٍ فيقول :

كانت وفاةُ سُكينة بالمدينة يوم الخميس ، لخمسٍ خَلَوْن من شهر ربيع الأول سنة (١١٧ هـ) ـ رضي الله عنها ـ[1] .

* توفيتْ سُكينة وعلى المدينة خالد بن عبد الملك بن الحكم فقال : انتظروني حتى أصلي عليها ، وخرج إلى البقيع فلم يدخلْ حتى الظّهر ، وخشوا أنْ تتغيرَ ، فاشتروا لها كافوراً بثلاثين دينار ، فلمّا دخل أُمّر شيبة بن نصّاح فصلّى عليها . قُدّمَ لفضله[2] .

* رحم الله سُكينة ، وأسكنها الفردوس ، وما أجمل قول الإمام النّووي عنها : كانت سُكينة من سيّدات النّساء ، وأهل الجود والفضل ، رضي الله عنها وعن آبائها[3] .

* * *

(١) وفيات الأعيان (٢/٣٩٦ و ٣٩٧) ، والكامل لابن الأثير (٥/١٩٥) .
(٢) الطبقات (٨/٤٧٥) ، والسمط الثمين (ص ١٩٧) .
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٦٣) .